السياق التاريخي في الخطاب الشعري اليمني في السيرة المنصورية لابن دعثم (٥٩٨-٦٠٣هـ)

د. خالد بن عبدالعزيز الخرعان
قسم الأدب – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

السياق التاريخي في الخطاب الشعري اليمني في السيرة المنصورية لابن دعثم (٥٩٨-٦٠٣هـ)

د. خالد بن عبدالعزيز الخرعان
قسم الأدب – كلية اللغة العربية– جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

عاشت اليمن في أواخر القرن السادس الهجري، ومستهل القرن السابع الهجري صراعات سياسية وفكرية، واضطرابات امتد تأثيرها على الشعر والشعراء، وبسطت نفوذها وسلطتها على نصوصهم، ما جعل هذا الملمح يشكل ظاهرة جلية دونتها السيرة المنصورية التي رصدت التاريخ لأبرز الأحداث التي خاضها عبد الله بن حمزة أحد أطراف هذا الحراك السياسي، الذي اتخذ نهجاً وقيماً في الدعوة إلى نفسه بالإمامة تراوحت بين قوة البأس والمبادئ التي أطلقها لتكون سبيلاً لإثبات حقه في هذه الدعوة، فتفاعلت البيئة الأدبية التي عاشت هذا السياق التاريخي معها، ما جعل هذه السيرة تحظى بذكر نحو أربعين شاعراً جلهم غفلت عنهم معظم المصادر الأدبية والتاريخية، واحتفظت بكم شعري كبير يبلغ عدد أبياته خمسة آلاف ومائة وستة وثلاثين بيتاً، نظمت جميعها متفاعلة مع السياق التاريخي، واتضح من خلال الدراسة المسحية والتحليلية هيمنة هذا السياق على المضمون الشعري، والمقومات الفنية لنصوص الشعراء.

تعد المصادر التاريخية – التي تأتي من بينها السير – أحد المصادر المهمة للنتاج الأدبي بما تشتمل عليه من تدوين نتاج كثير من الأدباء، وبما تضمه من إشارات إلى بواعث ومسببات ما نظم من أشعار، وسيقف هذا البحث على الأشعار التي وردت في السيرة المنصورية[1] لمؤلفها أبي فراس بن دعثم[2]، والتي رصدت كثيرًا من الأحداث والوقائع والأخبار، والرسائل والأشعار، لعبدالله بن حمزة[3]، الذي تبنى الدعوة لنفسه

(١) السيرة المنصورية، أبو فراس بن دعثم، تحقيق: د. عبدالغني محمود عبدالعاطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

ملحوظة: هذه السيرة أربعة أجزاء، فقد منها جزءان (الأول والرابع)، لذا فإن هذا البحث، وما يتصل به من نتائج وإحصاءات قائم على دراسة الشعر المتوافر في الأجزاء التي وجدت منها، أيضا يلحظ أن التحقيق لهذه السيرة لم يحظ بكثير من الأصول العلمية، وبخاصة في كتابة النصوص الشعرية، إذ وردت بعض الأبيات مختلة في الوزن، كما لحظ الاختلاف في بعض ألفاظ أشعار عبدالله بن حمزة ما بين ما ورد له في هذه السيرة وما ورد في ديوانه دون إشارة من المحقق إلى الاختلافات التي كان له الأثر في اختلال الوزن، لذا فإن الباحث حين إيراده أشعار ابن حمزة المتوافرة في السيرة المنصورية وديوانه اعتمد على النص المدوّن في الديوان إن وجد اختلاف بينهما.

(٢) هو أبو فراس بن دعثم بن أبي عمرو الصنعاني، نشأ في بيت اشتهر بالعلم والفضل، عمل في ديوان الإنشاء لعبدالله بن حمزة الذي دعا لنفسه بالإمامة (٥٩٣–٦١٤هـ)، كانت وفاته بعد سنة (٦١٥هـ)، كان أديبًا متمكنًا، وشاعرًا فصيحًا، وقد اعتمد عليه ابن حمزة في كتابة الرسائل الصادرة عنه، وفي نظم بعض القصائد ردًّا على بعض الأشعار الواردة إليه في المناسبات المختلفة. انظر: مَطْلَعُ البُدُور وَمَجْمَعُ البُحُور، أَحْمَد بن صَالِح بن أبي الرِّجَال، تحقيق: عبدالرقيب مطهر محمد حجر، منشورات مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية، اليمن – صعدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ٤/ ١١–١٣؛ أبو فراس بن دعثم وكتابه السيرة المنصورية، د. عبدالغني محمود عبدالعاطي، مجلة كلية الآداب، جامعة صنعاء، العدد العاشر، سنة (١٩٨٩م)، ص٢٣١؛ تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي، أحمد بن محمد الشامي، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ٤/ ٣٦–٣٧.

(٣) هو عبدالله بن حمزة بن سليمان بن حمزة.... ولد سنة ٥٦١هـ في عيشان من بلاد همدان، عرف عنه الذكاء والحفظ والبراعة والبلاغة، له أكثر من ثمانين رسالة، له ديوان شعر ضخم، جمعه أحد أولاده، وله مصنفات تزيد عن أربعين مصنفًا في أكثر مجالات العلوم الإسلامية، وقد وظف ثقافته وعلمه الواسع وبلاغته في الدعوة لنفسه بالإمامة، وفي الرد على خصومه السياسيين والمذهبيين، وكانت وفاته سنة ٦١٤هـ. انظر: الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية، حميد بن أحمد بن محمد المحلي، تحقيق: د. المرتضى بن زيد المحطوري الحسني، مكتبة مركز بدر للطباعة والنشر والتوزيع، اليمن،=

بالإمامة، وتمت مبايعته بها سنة ٥٩٤هـ في اليمن، وكانت حينها تعج بصراعات سياسية وفكرية؛ وذلك للتنوع السياسي والمذهبي الذي شهدته هذه البقعة طوال مدة العصور الوسطى؛ إذ لم تخضع في معظم مددها إلى سلطة مركزية واحدة؛ وإنما تنوعت القوى السياسية التي تلونت في أحيان كثيرة بالمذهبية الدينية، وفي ظل هذا الانقسام السياسي، وصل الأيوبيون إلى اليمن سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) لفتحها، وفي سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) أعلن عبدالله بن حمزة قيامه بأمر الاحتساب، ثم أعلن دعوته العامة سنة (٥٩٤هـ/ ١١٩٧م)، وأضحى الصراع متراكمًا بين القوى السياسية اليمنية نفسها، وبينها وبين الأيوبيين، ثم صراع ابن حمزة مع هذه القوى، وكذلك صراعه مع الأيوبيين؛ ما جعل المشهد السياسي في هذه المدة يموج بكثير من الاضطرابات على جميع الأصعدة، ومن هذه النافذة التاريخية تبدر الإشارة إلى أن هذا المشهد ألقى بظلاله على البيئة الأدبية: نثرها وشعرها، من خلال الحراك بين الشعراء في مناسبات كثيرة، وأثرى هذه الساحة أن ابن حمزة نفسه كان شاعرًا بارعًا، وله عناية بالأدب شعره ونثره، وقد احتفظت السيرة المنصورية - مصدر المادة العلمية لهذا البحث - بنتاج كثير من الشعراء الذي نظم في سياق الأحداث التاريخية، وقد استقى مؤلفها معلوماته من ابن حمزة؛ إذ كان كاتب ديوان الإنشاء لديه؛ ما أتاح له فرصة الاطلاع على جميع الوثائق والمكاتبات الواردة إليه والصادرة عنه؛ الأمر الذي دعم القيمة الوثائقية لهذه السيرة[1].

ويغطّي ما وجد من هذه السيرة مدة خمس سنوات فقط (٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م - ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م) من دعوة عبدالله بن حمزة التي استمرت نحو عقدين من الزمان؛ مستخدمًا مؤلفها المنهج التاريخي؛ وذلك بتسجيل أحداث كل سنة على حدة مع وضع

=ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ١٣٣/٢؛ غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص٣٢٩؛ تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي، الشامي، ٣٧/٣ وما بعدها؛ مجموع رسائل الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة، تحقيق: عبدالسلام بن عباس الوجيه، مؤسسة زيد بن علي الثقافية، عمّان، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص٢٣٩.

(١) انظر: الصراع السياسي والفكري في اليمن خلال العصر الأيوبي (٥٩٣-٦١٤هـ/ ١١٩٦-١٢١٧م)، د.محمد بن عبدالله الشويعر، د.ط، الرياض، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص١٣.

عنوانات رئيسة تناسب الحدثَ الذي يؤرخ له، مع الأخذ في الحسبان أن جميع مصادر أبي فراس إنما تعكس وجهة نظر ابن حمزة وانتماءه المذهبي؛ لأنه المصدر الرئيس لهذه السيرة، بالإضافة إلى عمل المؤلف في ديوان إنشائه.

ويبدر السؤال الرئيس عن الباعث لاختيار دراسة الشعر المبثوث في هذه السيرة دراسة أدبية، وتتجلى الإجابة في ركائز عدّة، يأتي في مقدمتها: ذكر هذه السيرة أكثر من أربعين شاعرًا، جلهم من الشعراء الذين لم يكن لهم ذكر في مصادر التراجم الأدبية، وليس لهم دواوين شعرية، أو نتاج تأليفي، ورصدها بين صفحاتها مئة وخمس وخمسين (١٥٥) قصيدة، يبلغ عدد أبياتها خمسة آلاف وتسعة وخمسين (٥٠٥٩) بيتًا، وخمس عشرة (١٥) مقطوعة، يبلغ عدد أبياتها سبعة وسبعين (٧٧) بيتًا، كما يتضح من الشكل الآتي:

شكل (١)

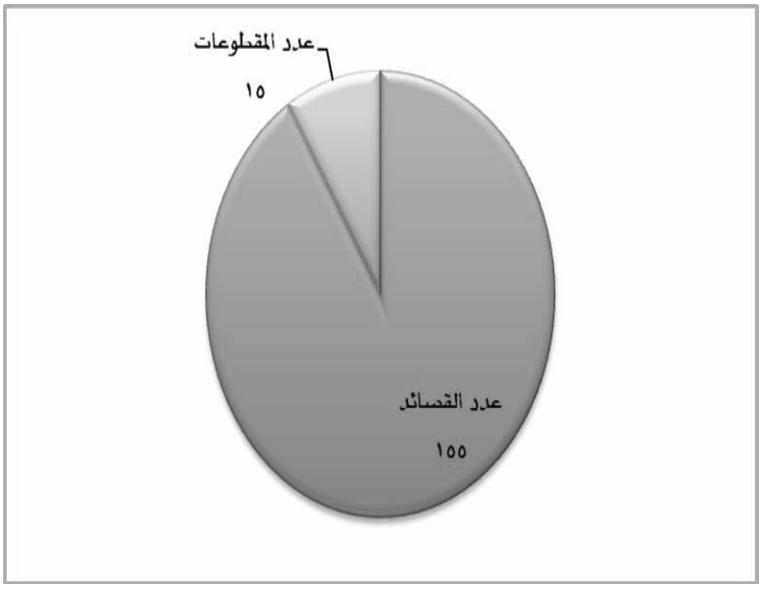

رسم بياني يوضح عدد القصائد والمقطوعات

وبذلك يبلغ إجمالي عدد الأبيات التي احتفظت بها هذه السيرة خمسة آلاف ومئة وستة وثلاثين (٥١٣٦) بيتًا، كما يتضح من الشكل الآتي:

شكل (٢)

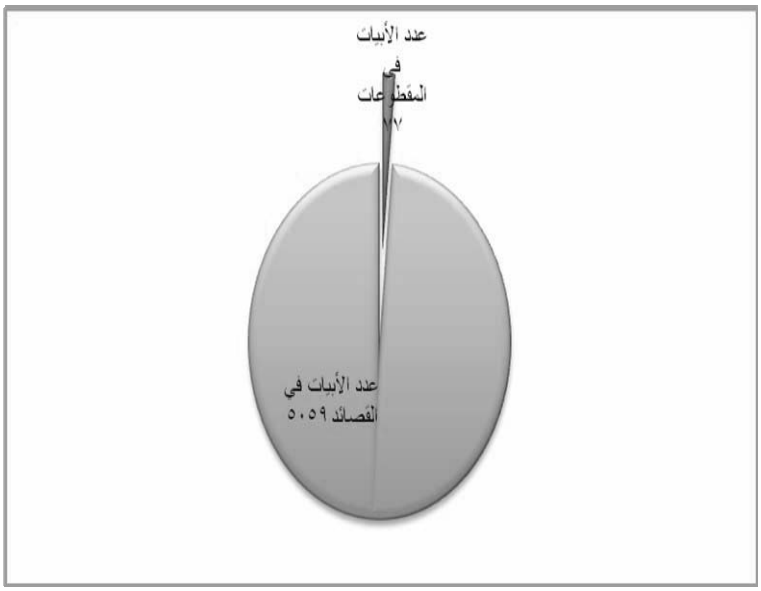

رسم بياني يوضح عدد الأبيات الواردة في القصائد والمقطوعات

فهذان السببان الرئيسان المتمثلان في الكم الشعري، والإفصاح عن ثلة من الشعراء المغمورين في جنوب شبه الجزيرة العربية يؤكدان ثراء البيئة العربية بصفة عامة والبيئة اليمنية بصفة خاصة بالأدب ورجالاته، وإن فلتت ترجماتهم من الرصد التاريخي الأدبي.

أما اختيار (السياق التاريخي في الخطاب الشعري اليمني في السيرة المنصورية لابن دعثم "٥٩٨-٦٠٣هـ") عنوانًا لهذا البحث؛ فيعود إلى أثر الأسس التي وضعها ابن حمزة لدعوته في النتاج الشعري؛ حيث أكد أنه من سلالة آل البيت، وأن دعوته قائمة على إقامة عمود الدين، ونشر العدل والإسلام، وحرب الطغاة، وإصلاح الأحوال، ودفع الظلم، وغير ذلك من السمات النبيلة، متسلحًا في هذه الدعوة بقوة البأس، والإصرار على تحقيق أهدافه، وقد تسللت هذه الأسس والأحداث التاريخية والصراعات التي انبثقت عنها إلى المضامين الشعرية بشكل واضح وجلي؛ ما يؤكد مدى تأثيراتها في الخطاب الشعري في

هذه المدة الزمنية، بل كان لها سلطان ونفوذ على بعض الأغراض التي تتسم في معظمها بالمعاني التي تفيض رقة وعذوبة في مواقف تلمس شغاف القلوب كالرثاء والتعزية، والتهنئة ببعض المناسبات الاجتماعية؛ وهذا يبين أثر السياق التاريخي في هذا الخطاب، كما يبين تأثير هذه الركائز في البنية الفنية من صور، ومعجم شعري، ومطالع، وغير ذلك من المقومات الإبداعية، فهذه أبرز المسببات الرئيسة لكتابة هذا البحث، ولاختيار عنوانه.

أولا- السياق التاريخي في القراءة التغريضية

إن الدلالة في أي غرض شعري لا تمارس فاعليتها في فراغ؛ بل لابد من إطار يبلورها، ويعكس مكوناتها داخل كل خطاب؛ لتتخذ أطرًا صغرى متفرعة عن الإطار الكلي الذي يعكس مجمل مكونات الخطاب العام الذي يتواصل فيه الباثّ مع المتلقي، وثمة علاقة بين الإطار التغريضي بالمتتاليات النصيّة؛ إذ إن المتتالية دالة على حدث، أما الإطار فإنه شكل تنظيمي لأحداث متوالية؛ وهو ما يؤدي إلى القول: إن التغريض سلسلة من المتتاليات التي تنتظم وفق قاعدة التشابه أو الاختلاف؛ فتكون علاماته المختلفة محتوى لهذه المتتاليات؛ وهذه النتيجة تؤدي إلى أن الغرض الشعري في حالة كُمون نصي منظّم وفق قاعدة الأنساق التي تتفاعل من تلقاء نفسها؛ أي: أنه مجموعة معطيات كامنة ينشأ عنها تفاعل الباث مع المتلقي، ثم تفاعل المتلقي مع الباث عبر هذه الأنساق؛ أي: من خلال النص الذي لابد من أن يتضمن الإطار وردود فعل القارئ تجاهه[1].

ويبرز السياق التاريخي في النصوص الشعرية التي يقف عندها هذا البحث من خلال تفاعل متتالياتها من حيث الكم والكيف مع هذا السياق، والركائز التي اتكأت عليها دعوة ابن حمزة؛ ويتجلى ذلك من خلال إحصاء المتتاليات التي تكون منها الإطار العام في هذه النصوص، وهذا يؤكد وجود وضع تواصلي يتفاعل في ضوئه الباث والمتلقي ينتظم في فاعلية كامنة في النص؛ أي: أنه لا ينظر إلى مناسبة النص أو السياق الذي قيل فيه، بل يتأمل في المعاني الجزئية التي تمثل كثافتها وتمحورها دلالة على نفوذ تفاعلي لأمر معين

---

(١) انظر: المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام، إدريس بلمليح، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، ص٣٩٠-٣٩١.

بـين المنـتج والمتلقـي؛ فالبحـث هنـا لا يحـصر الأغـراض الـشعرية بمقـاييس المناسـبة والحدث، وإنما يحصر المعاني الجزئية في النصوص؛ ليتضح تحول العلامات التغريضية إلى أغـراض ثابتـة، وهـذا يعطي المظهـر الحقيقـي لملامـح السـياق التـاريخي وتأثيراتـه، ويتبـين ذلك بالاطلاع إلى الرسم البياني الآتي:

شكل (٣)

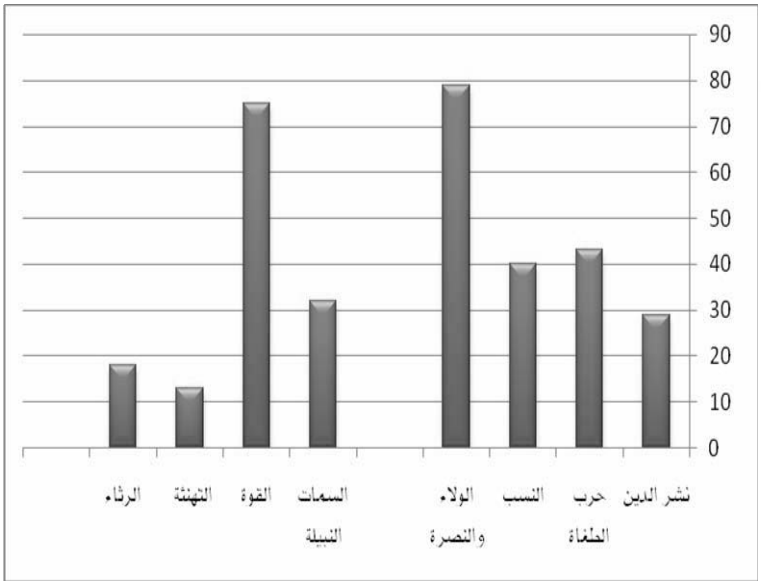

رسم بياني يوضح نسبة المتتاليات في القراءة التغريضية

يتبين من هذا الرسم البياني مدى نفوذ المتتاليات في النصوص الشعرية على أطرها العامة، كما يؤكد مدى نفوذ الأسس التي توشح بها ابن حمزة في دعوته، ويعكس في الوقت ذاته أثر الصراعات والعنف التي تقلدها السياق التاريخي في هذه المدة الزمنية؛ إذ واجهت دعوته لنفسه بالإمامة صراعين؛ الأول: مع الأيوبيين، الذين كانوا يسيطرون على معظم أرجاء اليمن، وكان لديه اليقين التام بهذا العائق أمام تحقيق هدفه، والثاني: المواجهة التي لم تؤخذ في الحسبان من لدن بعض الهجر والقرى والقبائل؛ إذ ظن أن الجميع سيتحد معه تجاه الأيوبيين؛ وهذا تحول كبير في النهج والفكر والسياسة لبسط

النفوذ[1]؛ انسحب تأثيره وردود أفعاله على المتتاليات في النص؛ فحين تأمل الرسم البياني السابق؛ يتجلى أن متتالية (الولاء والنصرة) في صدارة متتاليات النصوص التي تعبر عن حاجة ابن حمزة الماسة للظفر بكثير من المؤيدين لصعوبة المعوقات أمام دعوته، وتأتي بعد ذلك في المنزلة (القوة)؛ وهذا أمر بدهي لأن ترتكز دعوته على هاتين الدعامتين؛ فإما الولاء أو اللجوء إلى القوة، ومن ثم تأتي المتتاليات أقل نصيبًا منهما حسب ما تمليه الأحوال.

١. الولاء والنصرة

وحين الوقوف على متتالية (الولاء والنصرة) التي نالت الحظ الأوفر من الهيمنة على الخطاب الشعري اليمني في السيرة المنصورية في المدة الزمنية (٥٩٨-٦٠٣هـ)؛ يلحظ أنها تتمحور حول بعض الجزئيات التي تكوِّن في ما بينها ترتيبًا ينسجم مع توالي الأحداث التاريخية؛ فالعلاقة بين عبدالله بن حمزة والأيوبيين كانت مضطربة ما بين الاعتراف بسيطرته على صعدة[2]، ونقض ذلك الاعتراف، كذلك تأرجح ميل القبائل بين الموالاة له والموالاة للأيوبيين[3]، وهذا الترتيب يتبين من خلال تأييد بعض أهالي البلدان لدعوته، يتضح ذلك حينما قدم رجل من أهل المخلاف[4] باليمن يقال له: سعيد بن يحيى

---

(١) انظر: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي (٥٦٩-٦٢٦هـ)، محمد بن علي مسفر عسيري، دار المدني، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١١٧-١٢٣.

(٢) صعدة: مدينة مشهورة شمالي صنعاء، تبعد عنها سبع مراحل، وهي أم قرى خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، وكانت في الجاهلية تُسمَّى "جماع" انظر: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة (تاريخ المستبصر)، ابن المجاور، مراجعة: ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٣٢-٢٣٩؛ مجموع بلدان اليمن وقبائلها، محمد بن أحمد الحجري اليماني، تحقيق: إسماعيل بن علي الأكوع، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ٤٦٧/٢-٤٨١؛ معجم البلدان والقبائل اليمنية، إبراهيم أحمد المقحفي، دار الكلمة، صنعاء، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ٩٠٩/١-٩١٠.

(٣) انظر: تاريخ اليمن الإسلامي منذ قيام الدولة الصليحية حتى نهاية الدولة الأيوبية (٤٢٩-٦٢٦هـ)، د.محمد عبده محمد السروري، مكتبة خالد بن الوليد وعالم الكتب اليمنية، صنعاء، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م، ص٢٦٩.

(٤) في اليمن مخاليف كثيرة؛ وهو عبارة عن صقع يشمل بلدانًا كثيرة، والغالب أنه لا يذكر إلا مضافًا (مخلاف كذا)، انظر: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، الجحري، ٦٩١/٢.

البرجمي؛ مستنهضًا ابن حمزة، وحاكيًا ما عليه اليمن من الاستبشار لما بلغ إليهم قربه من البلاد، وطاعة الجند له، فأنشد[1]:

إِنَّ النَّبِـــيّ رَسُـــول اللّٰهِ أَوْدَعَنَـــا ... مِـنْ صِـحّةِ الْعِلْـمِ قَـوْلاً مَـا بِـهِ زُوْرُ

أَنْ نَـسْتَجِيْبَ إِذَا الْمَنْـصُورُ قَـامَ بِنَـا ... يَـدْعُو إِلَى الْحَـقِّ وَالْمَنْـصُور مَنْـصُورُ

فَـانْهَضْ إِلَـى يَمَـنٍ إِنَّ الْعُيُـونَ بِـهِ ... إِلَيْـكَ نَـاظِرَةٌ وَالْكُـلّ مَـسْرُورُ

.....

فَـشَمِّرِ الْعَـزْمَ يَـا مَـوْلَى الأَنَـامِ مَعًـا ... لَعَـلّ أَنْ تَنْجَلِـي عَنَّـا الـدَّيَاجِيْرُ

فهنا يؤكد الشاعر الولاء والنصرة من خلال بيان الاستجابة إلى دعوته، والتعبير عن السرور واللهفة إلى تحقيق سيادته على اليمن، وحثه على العزم في المضي نحو هذا الهدف؛ مشيرًا في ختام الأبيات إلى أن هذه الغاية ستزيل الظلم؛ فهذه صورة تكشف الولاء لابن حمزة، ويلحظ فيها الاستبشار بدعوته ونصرته قبل أن يقدم إلى البلاد، وبيان التبعية له.

وفي تسلسل الصورة التي يتجلى فيها الولاء؛ الشوق إلى اللقاء، والحنين للقرب من ابن حمزة، كما في قول حنظلة بن الحسن[2] متشوقًا إلى قدومه، ومبديًا حنينه إلى لقائه، ومثنيًا على خصاله، مركزًا على السمات التي جعلها من أساسات دعوته لنفسه بالإمامة، وبخاصة أنه نظم أبياته حينما سُجِن بعض كبار العلماء في تَعِز[3]، وذاقوا صنوف العذاب من الأيوبيين؛ إذ يقول[4]:

أَقُـولُ وَقَـدْ سَـئِمْتُ الْعَـيْشَ هَوْنَـا ... بِـــهِ حَتَّـــى تَمَنَّيْـــتُ الْمَنُوْنَـــا

وَأَفْنَيْـــتُ الـــدّمُوعَ سَـــحًا وَسَـــحًّا ... وَأَقْرَحْـــتُ الْمَـــآقِيَ وَالْجُفُونَـــا

---

(١) السيرة المنصورية، ٥٨/١-٥٩.

(٢) هو حنظلة بن الحسن بن شبعان، أحد رجالات العلم والفقه، وقد تتلمذ على يديه عبدالله بن حمزة وكثير من أهل طبقته. انظر: مطلع البدور ومجمع البحور، ابن أبي الرجال، ٢٥٢/٢-٢٥٣.

(٣) مدينة كبيرة في السفح الشمالي لجبل "صِبر" الشامخ، تبعد عن صنعاء جنوبًا بمسافة ٢٤٥ كيلاً، قيل: إنها لم تعرف بهذا الاسم إلا عندما سكنها (توران شاه) الأيوبي، ثم ازدادت شهرتها لما اتخذها الرسوليون عاصمة لدولتهم. انظر: معجم البلدان والقبائل اليمنية، إبراهيم أحمد المقحفي، ٢٣١/١.

(٤) السيرة المنصورية، ٩٧/١-٩٨.

.....	.....
وَيَـذْكُرُنِي عَلَـى بَلْـوَايَ مَـنْ لَـمْ	أُفَـارِقُ ذِكْـرَهُ فـي الـدَّهرِ حِيْنَـا
وَمَـنْ أَهْـوَى الّـذِي يَهْـواهُ فَرْضـا	وَأَعْتَقِـدُ الْمَحَبَّـةَ فِيْـهِ دِيْنَـا
.....	.....
عَـسَى الأَيّـامَ تُـسْعِدُنَا بِقُـرْبٍ	فَنَـسْكُنُ عِنْـدَهُ حَرَمًـا أَمِيْنَـا
وَنُـدْرِكُ فـي عـدَاةِ اللهِ ثَـأْرًا	وَنَـسْعدُ فـي ذُراه كَمَـا شَـقِيْنا
سَـلامُ اللهِ مِـنْ عَبْـدٍ مُحِـبٍّ	عَلَـى مَـوْلى البَرِيَّـةِ أَجْمَعِيْنَـا

فهذه أبيات من قصيدة يبلغ عدد أبياتها واحدًا وعشرين بيتا، عبر فيها الشاعر عن الحنين والمحبة لابن حمزة، ذاكرًا انتسابه إلى نسل آل البيت، ومبالغًا في تبعيته، ومشيرًا إلى الحق والعدل والإنصاف، ودحض الظلم، وهي سمات رئيسة في دعوة ابن حمزة.

وقد عبر الشعراء عن ولائهم من خلال حث أهل بلدانهم على الطاعة، أو توجيه الخطاب إلى ابن حمزة بالمضي في رسالته، وبيان الفداء له، ومناصرة الجند[1]، وهذه صور تمثل ملمحًا جليًا في تأكيد التأييد والنصرة له، والترحيب به قبل سيره إلى فتح أي بلد.

وثمة تعبيرات من الشعراء عن الولاء تأتي في مرحلة تالية للمرحلة السابقة؛ وهي مرحلة ما بعد دخول ابن حمزة إلى بلدانهم، ومن بين معاني هذا الولاء بيان استقرار البلاد بعد خضوع البلد لنفوذه، وذلك لتهيئته سبل الحياة التي كانوا يفقدونها، مثل العدل والإنصاف، ونشر الإصلاح، ومحاربة المفسدين وأهل الضلال، وهذه المعاني تتناغم مع الركائز التي توشح بها ابن حمزة حينما عزم الدعوة لنفسه بالإمامة، من ذلك ما نظمه

(١) للاستزادة، انظر: السيرة المنصورية، ١/٥٢-٥٣؛ ٢/٥٦٥-٥٦٧.

عمرو العنسي[1] معبرًا عن فرح ظَفَار[2] بقدومه في قصيدة يبلغ عدد أبياتها ثلاثة عشر بيتًا، منها قوله[3]:

إِمَامَ الْهُدَى فَازَتْ ظَفَارُ وَأَصْبَحَتْ	تَطُولُ عَلَى كُلِّ الْبِلادِ وَتُشْرِقُ
سَمَوْتَ بِهَا بَدْرًا وَلَيْثًا ضُبَارِما[4]	وَبَحْرًا عَلَى رَاجِي النَّدَى يَتَدَفَّقُ
أَقَمْتَ بِهَا فَالْكُلُّ يَنْظُرُ نَحْوَهَا	وَلَمْ تَزَلِ الأَحْدَاقُ بِالْخَيْرِ تَحْدِقُ
أَغَرْتَ بِهَا الْبُلْدَانَ فَهْيَ مَشُوقَةٌ	وَكُلُّ مَكَانٍ لَمْ يُعَايِنْكَ شَيِّقُ
فَلَوْ مَشَتِ الْبُلْدَانُ جَاءَتْكَ كُلُّهَا	فَمَا إِنْ لَهَا إِلاّ بِوَجْهِكَ رَوْنَقُ
.....	.....
فَيَا نَاشِرَ الْعَدْلِ اقْسِمِ الوَصْلَ إِنَّمَا	بُعَادُكَ يُشْجِي الْمُبْعَدِينَ وَيَخْنُقُ
بَقَيْتَ تُعِزُّ الدِّيْنَ يَا بْنَ مُعِزِّهِ	وتشْجِي مُعَادِيْكَ الغَوِيَّ وَتشْرقُ
وَزَارَكَ مِنّا كُلّ حين تَحِيّةٌ	هِيَ الْمِسْكُ بَلْ أَذْكَى وَأَعْلَى وَأَعْبَقُ

(١) هو القاضي عمرو بن علي بن أسعد العنسي، تولى القضاء في حوث. انظر: مطلع البدور، ابن أبي الرجال، ٣/٣٨٨-٣٩١.

(٢) ظَفَار: اسم مشترك بين جملة بلدان في اليمن، منها: ظفار حمير، وظفار داود، وظفار آنس، وظفار هنا: حصن في ناحية الحيمة الداخلية غربي صنعاء، وقد أسس هذا الحصن عبدالله بن حمزة خشية الأيوبيين. انظر: معجم البلدان، ياقوت بن عبدالله الحموي، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ٤/٧٦؛ الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبدالمنعم الحميري، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م، ص٤٠٣؛ مجموع بلدان اليمن وقبائلها، الحجري، ٣/٥٦٤؛ هجر اليمن ومعاقله، إسماعيل بن علي الأكوع، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ٣/١٢٨٣؛ معجم البلدان والقبائل اليمنية، إبراهيم المقحفي، ١/٩٧٤.

(٣) السيرة المنصورية، ٢/٧٤٩-٧٥٠.

(٤) الضُّبَارِمُ: الأسد، والرجل الجريء على الأعداء. انظر: القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٦، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، مادة (ضبرم).

يجسد الشاعر في هذه الأبيات ما نعمت به ظفار بعد ضمها تحت نفوذ ابن حمزة، ناثرًا أحاسيس الشوق والولاء والطاعة، موظفًا التشخيص في تصوير ما حلّ بها من اليُمن والرخاء حتى أخذت جميع البلدان تتنافس في المضي إلى رؤية ابن حمزة، وختم الأبيات بندائه بإحدى الدعائم لدعوته ألا وهي إقامة الدين والعدل، ومحاربة الأعداء، فهذه الأبيات ونظيراتها التي ساد فيها الفرح والسرور بعد قدوم ابن حمزة صورة من صور الولاء بعد مدّ نفوذه وسلطانه على البلاد التي خضعت لدعوته.

وقد كان هناك حراك أدبي من خلال أشعار ابن حمزة التي ضُمّنت الشكر والعرفان على اتباع دعوته، والثناء على مشاعر الولاء والطاعة التي عبقت بها أبيات الشعراء، من ذلك ما قاله لما بدأ العمارة في ظفار[1]:

أَتَتْنِـــي فـــي ظَفَـــارَ مُـــشَوِّقَاتٌ	إِلَـــيْكُمُ ذِكْرُهَـــا يُرْضِـــي وَيُـــسْلِي
تَـــضَوَّعُ فِـــي النَّـــدِيِّ إِذَا أُعِيْـــدَتْ	كَفَـــارِ المـــسك يـــوم نَـــدى وطَـــلّ
تُـــذَكِّرُنِي مَـــوَاقِفَكُم قَـــدِيْمًا	وفعـل سُـرَاتِكُم فـي كُـلِّ حَفْـل
تَـــسَابَقَتِ القَبَائِـــلُ لِلْمَعَـــالِي	فَكَـــانَ جـــوادُكُمْ فِيْهَـــا الْمُجَلِّـــي
فَفُقْـــتُم مَـــنْ يَـــرُومُ لَكُـــمْ لَحَاقًـــا	بِجِـــدٍّ فِـــي الْمَكَـــارِمِ لا بِهَـــزْلِ

ويتجلى الولاء والنصرة في الخطاب الشعري من خلال تأييد القرارات التي اتخذها عبدالله بن حمزة بعد دخوله البلاد، واستقراره بها في صورة تؤكد اتباع نهجه، وهذه السبيل تبرز مرحلة تالية للمرحلتين السالفتين، من ذلك ما ورد من أشعار في ذكر ضرب الدرهمين، كقصيدة عمرو العنسي التي يبلغ عدد أبياتها عشرين بيتًا، قالها مضمنًا إياها الثناء على كرم ابن حمزة، وحفظه المكارم، وشجاعته، ودحضه الظلم والظالمين، وفل نفوذ الأعداء، والإشادة بانتسابه إلى آل البيت؛ مؤكدًا أن هذا الصنيع نابع من حكمة قائد

---

(١) مطالع الأنوار ومشارق الشموس والأقمار، ديوان عبدالله بن حمزة، تحقيق: إبراهيم يحيى الدرسي الحمزي، مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية، اليمن، صعدة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٢٩١؛ السيرة المنصورية، ٢/٧٤١-٧٤٢.

محنك، وانتصار سافر على الأعداء، وإطاحة بعملتهم التي كانت سائدة في البيع والشراء، إذ يقول [1]:

حَفِظْتَ الْمَكَارِمَ مِنْ كُلِّ شَيْن ... وَمَا زِلْتَ بِالْمَالِ سَمْحَ اليَدَيْنِ

فَفَاضَتْ أَيَادِيْكَ فِي الْعَالَمِيْن ... لِتَنْفِيَ كُلَّ ضَلالٍ وَمَيْن

فَطَوْرًا تُغِيْرُ إِلى الْمَشْرِقَيْنِ ... وَطَوْرًا تُغِيْرُ إِلَى الْمَغْرِبَيْنِ

وقدّمْت فيها بني هاشم ... لُيُوثَ الكِفاحِ لَدى الْمَارِقِين

....

نَقِيَّيْنِ مِنْ كُلِّ مَا يُسْتَرَابُ ... مَلِيْحَيْنِ فَازَا بِمحْضِ اللجَيْن

أَمَرْتَ بِضَرْبِهِمَا الْمُخْلِصين ... فَجاءا كَمِثْلِهما خَالِصَيْنِ

أَهَانَا نُقُودَ جُنُودِ الظَّلالِ ... وَكانَا بِغَيِّهِمَا شَاهِدَيْنِ

ولاحَ اسْمُكَ الْمُرْتَضى فيهما ... فَعَزَّا وَطَالا عَلَى الفرْقَدَيْنِ

إن هذا التأييد والنصرة ليؤكدان الولاء لابن حمزة، وفي الوقت ذاته يعبران عن الخوف والخشية من معارضته في ما يمليه من أحكام على أي صعيد، يدل على ذلك شدة بأسه وبطشه ضد من يعارضه أو يخالف آراءه؛ حيث سلك هذا النهج ضد من تسوّل له نفسه إبداء رأي مخالف أو الاستخفاف بتغييراته، من ذلك سجنه أحدَ قضاة أُثَافَت[2] بعد أن أظهر المودة لابن حمزة، ثم نكس مستخفًا بضرب الدينار والدرهم، فندم على صنيعه، وأخذ بعض الأعيان الشفاعة له عند ابن حمزة، من ذلك قول أحد الشعراء[3]:

---

(١) السيرة المنصورية، ٢/ ٧١٩–٧٢٠.

(٢) بلدة قديمة خاربة منذ القرن السادس الهجري، وكانت تسمى في الجاهلية (دَرْنا)، ومن آثارها الباقية إلى اليوم حوض الماء المعروف باسم: الْمَصْنَعة. انظر: معجم البلدان والقبائل اليمنية، إبراهيم المقحفي، ١/ ٢٤.

(٣) السيرة المنصورية، ٢/ ٧٦٧–٧٦٨.

إلـــى بَـــابِ مَوْلانَـــا الإمـــامِ نُـــيَمِّمُ ... وفي سوحه الرَّحْبِ الْخَصِيْبِ نُخِيِّمُ

وَعَـنْ هَدْيِـهِ يَهْـدَى البَرِيَّـةُ إِنْ عَمُـوا ... وَمِنْـهُ يُرَجَّـى الْعَفْـوُ إِنْ زَلَّ مُجْـرِمُ

وَمَـا هَالـكٌ يَرْجُـو النَّجَـاةَ وَسَـالِم ... شَـــفِيْعٌ لَـــهُ إِلاّ وَيَنْجُـــو وَيَـــسْلَمُ

....

ولـو عَظُـمَ الـذَّنْبُ الـذي قِيْـلَ: إِنَّـهُ ... عَظِيمٌ وَلَكِـنْ مِنْـهُ عَفْـوكَ أَعْظَـمُ

سَـــجِيَّةُ آبَـــاءٍ أُبَـــاةٍ تَقَـــدّموا ... إِلَيْهَـــا وَمِنْهَـــا العَـــالمون تَعَلَّمُـــوا

عليـــكَ أَمِيـــرَ المـــؤمِنِيْن تَحِيَّـــةٌ ... مِـــنَ اللّهِ تَتْـــرَى دَائِمًـــا وَعَلَـــيْهِمُ

فهذا الحدث يعطي صورة جلية لقمع ابن حمزة كل من تسول له نفسه معارضته حتى وإن كان من علية القوم؛ ما يدل على أن الولاء ليس مبعثه محصورًا في القناعة بدعوته، وإنما كان الخوف أيضًا أحد مسببات التعبير عنه.

وحين يُمعن النظر فيما يتلو ذلك بعد الاستقرار والتأييد للمبادرات الجديدة يتجلى أمرٌ اجتماعي؛ إذ إن هناك مشكلات اجتماعية ذات صلة بالساسة، مثل: الوشاية، والنفاق، أو غيرهما مما قد ينعكس صداه على بعض الأفراد، وهذه الصورة تمثل مرحلة منطقية لما سبقها من مراحل في حياة أي مجتمع يخضع لنفوذ حكم جديد، من ذلك ما قاله علي بن نشوان[1]؛ حينما أكد ولاءه لابن حمزة؛ لأن أخاه محمدًا كان باقيًا على الخلاف معه؛ لينجو بنفسه من اتخاذ ابن حمزة أي موقف تجاهه بسبب هذا الخلاف في إشارة جلية إلى شدة بأسه، وتأكيد قناعة الشاعر بدعوته ونصرته لها، وقد عبر عن هذا الولاء بقصيدة يبلغ عدد أبياتها عشرين بيتًا، ساردًا فيها السمات النبيلة التي جعلها ابن حمزة ركائز

(١) هو القاضي جمال الدين علي بن نشوان بن سعيد الحميري، أحد علماء عصره، وقد جمع سيرة حافلة لعبدالله بن حمزة، وله شعر كثير في وصف المشاهد والحروب التي خاضها ابن حمزة. انظر: مطلع البدور، ابن أبي الرجال، ٣/ ٣٥٩-٣٦١؛ تاريخ اليمن الفكري، الشامي، ٣/ ٢٧٦.

في دعوته لنفسه بالإمامة، كالعدل، ونشر الحق، ومشيرًا إلى أحقيته بالإمامة، ومبالغًا ومغاليًا في التقرب إلى الله بالطاعة باتباعه له، يقول[1]:

أَنْتَ الإِمَامُ فَمَنْ عَصَاكَ فَقَدْ غَوَى ... ضَلَّ السَّبِيْلَ فَحَادَ وَاتَّبَعَ الْهَوَى

كَملتْ خِصَالُ الفَضْلِ فِيْكَ جَمِيْعُهَا ... يَابْنَ النَّبِيِّ فَمَا يَضُرُّكَ مَنْ لَوَى

....

ونصبْتَ أَعْلامَ الْهُدَى وَرَفَعْتَهَا ... فَغَدَتْ مَعَالِمه منيفات الصُّوى[2]

وَنَفَيْتَ ظُلْمًا في البِلادِ وَبَاطلاً ... فَجَمِيْعُ أَرْبَابِ الضَّلالَةِ في الهوى

فَلْيَهْنَ أَهْلُ العَصْرِ عَدْل شَامل ... في ظِلّ دَولَتِكَ الّتِي نَفَتِ الْجَوَى[3]

....

إِنِّي لَمُعْتَقِدٌ إِمَامَتَهُ عَلَى ... عِلْمٍ وَإِنْ صَدَّ الْمُعَانِدُ وَالْتَوَى

وَمُنَاضِلٌ عمري لِجَاحِدِ فَضْلِهِ ... حَتّى يعود إلى الصَّوَابِ مِنِ انْزَوَى

يتضح من الأبيات تتابع معاني الولاء والنصرة، والتأكيد على انتشال ابن حمزة الظلم والباطل من البلاد، والإقرار له بالإمامة وأحقيته بها، وتعجبه واستنكاره من المخالفين له، وفي الوقت ذاته الفداء بعمره بدحض المناوئين حتى يعودوا إلى صوابهم في سياق يؤكد تخلصه من موقف أخيه مع ابن حمزة، ويبدو التآزر بين مضامين الشاعر المبثوثة في القصيدة مكونة لوحة من الولاء الصادق للمخاطب، والذود عنه، والوقوف ضد أعدائه.

ويأتي في سياق هذه المرحلة المواقف العدائية التي توجه إلى ابن حمزة من البلاد التي لم يمتد نفوذه إليها؛ فيتسابق الشعراء إلى استغلال هذا الموقف لبيان ولائهم له ودفاعهم عنه؛ ما أحدث حراكًا أدبيًا، من ذلك ما قاله علي بن نشوان جوابًا عن الشعر

---

(١) السيرة المنصورية، ٢/ ٧٥٠-٧٥١.

(٢) الصُّوى: أحجار تكون علامة في الطريق. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة (الصُّوة).

(٣) الْجَوَى: الحزن. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة (الجوى).

الذي وصل من جهة اليمن المتضمن سبّ ابن حمزة وبعض أتباعه، حيث نظم قصيدة يبلغ عدد أبياتها خمسة وأربعين بيتًا، منها[1]:

يَـا بَادِيًـا بِكَـلَامِ الْهَجْـرِ مُعْتَـدِيًا ... عَلَـى الأَئِمَّـةِ وَالعَـادِي هُـوَ الْبَـادِي

وَقَائِـلَ الـزُّوْرِ فِـي ذَمِّ الإِمَـامِ وَفِـي ... ذَمِّ الأَمِيْـرَيْنِ شَـيْخَيْ بَنِـي الْهَـادي[2]

وَهُـمْ شُـمُوسُ الْهُـدَى وَالْمُسْتَـضَاءُ ... مِنْ حِنْـدِسِ الـدَّهْرِ للسَّارِي وَلِلْغَـادِي

....

يَا نَاقِصَ الْعَقْلِ يَا مَغْرُور هَلْ سُـمِلَتْ ... عَيْنَـاكَ أَمْ أَنْـتَ أَعْمَـى غَيْـرُ مُنْقَـادِ

مَا كَانَ عِزُّكَ فِي هَجْـوِ الإِمَامِ وَفِي ... هَجْـوِ الأَمِيْـرَيْنِ فِـي شِـعْرٍ وَإِنْـشَادِ

وَذَمِّ قَـوْمٍ هُـمُ سَـادَاتُ عَـصْرِهِمُ ... وَهُـمْ بِـهِ خَيْـرُ أَعْمَـادٍ وَأَوْتَـادِ

ظَنَنْـتَ أَنَّـكَ بَـالعَوْرَاءِ تنْقـصهم ... وَهَـلْ يطِيْـقُ بعـوضٌ نَقْـلَ أَطْـوَادِ

حَسَدْتَهُمْ فَضْلَهُمْ لَمَّا سمعْتَ بِهِ ... وَمَـا يـضرُّ رَئِيـسًا قَـوْلُ حُـسَّادِ

أَضْـلَلْتَ عَقْلَـكَ وَاسْـتَوْجَبْتَ قَتْلَـكَ ... سَـبِّ الإِمـامِ التَّقِـيِّ الْمُرْشِـدِ الْهَـادِي

يَا وَيْحَ وجْهِـكَ مِنْ نَارِ الْجَحِيْمِ إِذَا ... سُـئِلْتَ مِـنْ قَـوْلِ زورٍ يَـوْمِ الاشْـهَادِ

وَوَيْـلَ رَاضٍ بِهجْـرِ القَـوْلِ مُـسْتَمِعٍ ... مُـصْغٍ إِلَـى مُنْـشِدٍ لِلْهَجْـوِ أَوْ شَـادِ

فهذه القصيدة تمثل لوحة من الولاء من خلال الدفاع المستميت عن ابن حمزة، وإسباغ الخصال الذميمة والأوصاف القبيحة على هذا المعادي له، وتوعُّده بالويل والعذاب يوم الحساب في إيماءة إلى التسليم بركائز دعوته، وفي ملمح أدبي يلحظ أن هذا المعنى

---

(١) المصدر السابق، ١/٢٠٤-٢٠٧.

(٢) الأميران: هما شيخا آل الرسول، يحيى ومحمد ابنا أحمد بن يحيى بن الهادي. وفي الأصل (مرضى بني الهادي)، ولعل الصواب (شيخي)؛ لأن السياق لمناسبة الأبيات، والتعريف بالأميرين يرجح لفظة (شيخي). انظر: السيرة المنصورية، ١/١٩٣.

تسلل إلى بعض الشعراء؛ ليؤكدوا ولاءهم ونصرتهم له، إذ أنشأ المرتضي بن أحمد بن أبي السعود[1] قصيدة يبلغ عدد أبياتها ثلاثة وعشرين بيتًا على الروي والوزن نفسيهما للقصيدة السابقة، ما يبرز تأثير السياق التاريخي في الخطاب الشعري، من أبياتها[2]:

تَبَّتْ يَدَاكَ وَلا وفّقْتَ يَا شَادي ... كَيْفَ اجْتَرَأْتَ عَلَى شَيْخِي بَنِي

يَا أَخْبَثَ النّاس في قولٍ وفي شِيَمٍ ... وفي فعالٍ وفي أَصْلٍ وَمِيْلادِ

أَنْكَرْتَ ما عرفَ الأَخْيَارُ مِنْ سِيَرٍ ... مَسْتُورها في حياة الدين كالبادي

فَسِرْتَ وَحْدك في وادٍ وكلّ بَنِي ... حوّا وآدَمَ يَا مَخْذُول في واد

اكْشف قناعك يَا مَنْ عِرْضُهُ دَنِسٌ ... يُنْبِئْك عَنْ خبْثِ آبَاءٍ وَأَجْدَادِ

لَيْسَ التَّكَتّم يُشْفِي الغَيْظَ فَابْدُ ... هَذا نِظَامِي وَإِصْدَاري وَإِيرَادِي

أَوْمتْ بِغَيْظِكِ فَالدُّنْيَا وَسَاكنها ... تَحْتَ الْمَرَاسِم مِنْ حضْرٍ وَمِنْ بَادِ

فهاتان القصيدتان تتآزران؛ لبيان أثر السياق التاريخي في الخطاب الشعري، والمشاركة في هذه المواقف للتعبير عن الولاء، وقد انعكس هذا الأثر على البنية الفنية؛ إذ نظمت القصيدتان على الوزن والروي نفسيهما، ووُظِّفت فيهما لغة حادّة انتُقي معجمها بما يبين الفداء لابن حمزة، ومحاربة أعدائه، وأيضا تشابه كثير من المعاني التي ساقها الشاعران في الأبيات.

ومن النماذج التي أوردها بعض الشعراء بعد استقرار ابن حمزة في البلاد التي خضعت لنفوذه المبادرة في التصنع باستغلال بعض المواقف التي تحدث في الحياة الإنسانية، مؤكدة مظهرًا من مظاهر الانقياد التام لدعوته، ومحاولة التقرب إليه، ومعبرة عن ملمح في شخصيته التي يشنف آذانها سماع هذا الخطاب الشعري الذي ينقل مشاعر النصرة له، وتلذذه بتهافت الشعراء على هذه المعاني؛ لأنه شاعر وأديب بارع،

(١) هو أحد الشرفاء الأجلاء من بلاد خولان، وأحد مناصري عبدالله بن حمزة ضد أعدائه. انظر: السيرة المنصورية، ٢٠٧/١.

(٢) المصدر السابق، ٢٠٧/١-٢٠٨.

ومن هذه المواقف السيل الذي أصاب صنعاء وخربت بسببه الدور، وأحدث أضرارًا كثيرة بأعداء ابن حمزة الذين يأتي في مقدمتهم وردسار[1]، من ذلك قصيدة لحسن بن عزوي[2] يبلغ عدد أبياتها ستة وعشرين بيتًا، منها[3]:

أَرَأَيْتُم ذَا الصّنْع في صَنْعَاء ... يَا مَعْشَرَ العقَلاءِ وَالأُدَبَاءِ

وَرَأَيْتُم هَذَا الإمَامَ وَنَصْرَهُ ... فِيْمَا يُشَيِّده مِنَ العَلْيَاءِ

مَا رَامَ يَرْمِيْهِ العَدوّ بِبَغْيِهِ ... إِلاَّ رَمَاهُ اللهُ بِالآرْزَاءِ

نَقَمٌ شَبِيْهُ الْمُعْجِزَاتِ تَحثّها ... دَعَوَاته أَبَدًا عَلَى الأَعْدَاءِ

لَمَّا أَبَتْ سَنْحَانُ[4] نَصْرَ إِمَامِهَا ... وَتَصَدَّرَتْ في خِدْمَةِ الْخُبْثَاءِ

مَطَرَ الْحَيَا سَخَطًا عَلَى أَجْبَالِهَا ... مَطَرًا حَقِيْقَته مِنَ الأَسْوَاءِ

وفي هذا الحدث أيضا أنشأ ركن الدين عمرو بن علي العنسي، قصيدة يبلغ عدد أبياتها تسعة وعشرين بيتًا، إذ يقول[5]:

وَافَى إِلَيْهِمُ مِنْ دُعَائِكَ بَغْتَة ... سَيْلٌ حَكَى السَّيْلَ الَّذِي أَفْنَى سَبَا

هَدَمَ الإِلَهُ بُدُورِ أَهْلِ الْعَدْلِ دُوْ ... رَ مُعَطِّلِيْنَ بِهَا الْمُدَامَةَ تُسْتَبَا

---

(١) هو الأمير مصطفى علم الدين وردسار بن بنامي الشاكاني، من كبار قادة الأيوبيين، وظل على ولائه للملك المعز إسماعيل إلى أن وقع الخلاف بينهما؛ فانضم بقواته إلى صفوف عبدالله بن حمزة في الحادي عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٩٨هـ. انظر: تاريخ اليمن الإسلامي، د. محمد عبده السروري، ص٢٦٦-٢٧٢.

(٢) هو الحسن بن عَزْوي العصيفري، حميري النسب، من علماء عصره، وله باع في الشعر، وكان شعره واضح المعاني فصيح المباني. انظر: مطلع البدور، ابن أبي الرجال، ٢/٥٧-٥٨؛ تاريخ اليمن الفكري، الشامي، ٤/١٩-٢٠.

(٣) السيرة المنصورية، ٢/٦٨٣-٦٨٥.

(٤) سَنْحَان: قبيلة ومديرية في الشرق الجنوبي من صنعاء. انظر: معجم البلدان والقبائل اليمنية، إبراهيم المقحفي، ١/٨١٧ .

(٥) المصدر السابق، ٢/٦٨٥-٦٨٧.

فهاتان القصيدتان تكشفان صورة جلية من الولاء، من خلال التعبير عمّا أحدثه السيل من أضرار بصنعاء وأهلها ودورها التي يسكنها أعداء ابن حمزة، وبث الطمأنينة في نفسه بأن هذا نصر من الله؛ تأكيدًا على صدق دعوته، وحثه على المضي في نشرها، وفتح جميع البلدان، وأن الله مسخر له الدروب، وما هذا السيل إلا مكرمة من الإله سخرت لدحض الأعداء وكبتهم، والانتصار للدين الحق، والعدل والإنصاف، وإزالة المنكرات والمعاصي.

وثمة شعراء عبروا عن ولائهم لابن حمزة بتوظيف مواقفهم الخاصة التي يمرون بها كالمرض، ولكن هذا النهج كان أقل شيوعًا من النماذج السابقة، من ذلك قصيدة يحيى بن مكني[1] التي يبلغ عدد أبياتها واحدًا وأربعين بيتًا؛ إذ نظمها حينما أصابه وجع أقعده عن المشي، وضمنها الشكوى من الحال، والمرض، والعجز عن الاستمتاع بمشاهدة الحسان، ثم تحويل الخطاب إلى أن تخفيف مصابه كامن في محبته لابن حمزة في صورة معبرة عما يكنه له من الولاء، يقول[2]:

وَغَـدَوْتُ فِيْهَـا وَالزَّمَـان كَأَنَّمَـا ... لـبس الفـضا يومًـا بـه فـضفاضا

حَتَّـى اعْتَرَتْنِـي فـي الزَّمَـانِ نَوَائـب ... أَعْفَلْـنَ مِنْـهُ حَيّـةً نَـضْنَاضَا[3]

....

وَغَـدَتْ فَـضَائِلُهُ الْجِـسَامُ لَنَـا عَلَـى ... مَـا نَالَنَـا مِـنْ دَهْرِنَـا أَعْوَاضَـا

مَـا زَارَهُ الْعَـافُوْنِ إِلاَّ أَوْرِدُوا ... بَحْـرًا خِـضَمًّا بِالنَّـدَى فَيَّاضَـا

---

(١) هو يحيى بن مكني بن حمزة بن عبدالله بن محمد بن جعفر بن القاسم بن علي، أحد أشراف الجوف (مدينة قديمة في الشرق الشمالي من صنعاء). انظر: السيرة المنصورية، ٣٨٨/١؛ مطلع البدور، ابن أبي الرجال، ٥١٢/٤-٥١٣؛ معجم المدن والقبائل اليمنية، إبراهيم المقحفي، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٥م، ص٩٧.

(٢) السيرة المنصورية، ٣٨٨/١-٣٩١.

(٣) حية نضناضة، أي: التي لا تستقر في مكان، وإذا نهشت قتلت من ساعتها. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة (نضض).

فهذه القصيدة التي قالها الشاعر واصفًا حاله بعد أن أقعده المرض عن المشي، استهلها بالشكوى من الحال، ولكن قصده المضمر أدى به إلى مدح ابن حمزة، والتركيز على شجاعته وقوة بأسه، والثناء على جوده وكرمه، وحين تأمل النص يتجلى فيه تعاضد العلاقة بين السياق التاريخي المتمثل في تبجيل ابن حمزة ونصرته، والخطاب الشعري بانصراف معانيه إلى هذا السياق، نائيًا عن المقصد الرئيس من نظم الأبيات المتمثل في شكوى الحال؛ ما جعل هذا النص يتحقق فيه مفهوم (التعضيد) النابع من مقصدية التثبيت[1]، إذ إنه بنظرة شمولية خرج من إطاره العام إلى متوالية معانٍ يتحقق فيها التأييد والنصرة لابن حمزة، ويؤكد هذه النظرة بناء النص وخصائصه الفنية؛ فمناسبته تلائم معجمًا رقيقًا مترعًا بالأسى ويفيض بالألم، وما بثه الشاعر في الأبيات على نقيض هذا؛ إذ شاع في النص صوت السيوف، وصهيل الخيل، وعبارات الثناء.

إن الأحداث السياسية المضطربة في اليمن أثناء هذه المدة الزمنية، ودخول ابن حمزة في صراعات ثنائية سواء مع المخالفين له من أهل اليمن أو مع الأيوبيين جعل الاستقرار في أي بلد تخضع لنفوذه في قلق دائب، وهنا تتضح صورة من الولاء حينما تزداد حدّة الخلافات السياسية، من ذلك لما تواترت الأخبار بخروج أحد قادة الأيوبيين للصراع مع ابن حمزة؛ انقسم الناس صنفين؛ الأول: مؤيد له، والآخر: فرح بأمل أفول دعوته، وفي هذا المشهد تبرز صورة من الولاء من خلال دفاع بعض الشعراء عنه، وحث الناس على اتباع الحق، وعدم الانجراف وراء الجهلة والمنافقين، وتذكيرهم بالخصال النبيلة التي يتحلى بها، من ذلك قصيدة لحنظلة بن الحسن، يبلغ عدد أبياتها ثلاثة وخمسين بيتًا، منها[2]:

جهالاتُ أصحابِ الضَّلالِ فنونُ ... إلى غَيْرِ حدٍّ تَنْتَهي وَتَبِيْن

وَمَنْ ضَلَّ عَنْ قَصْدِ السَّبِيْلِ فَإِنَّهُ ... حَرِيٌّ بفقْدانِ الأُصولِ قَمِيْن

---

(١) انظر: دينامية النص (تنظير وإنجاز)، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م، ص٨٥.

(٢) السيرة المنصورية، ٢/٥٧٢-٥٧٥.

وَكَـمْ مُـدَّعٍ مَـا لا يـصحُّ ثبوتُـه ... وتكوين ما في العقل ليسَ يَكُون

وَلا كَادِّعَـاء الباطنيّـة ضـلَّة ... حَيَـاة إمـامِ القـوْمِ وهْـوَ دَفِـين

مَـضَى وَهْـوَ طِفْـلٌ بالعيـان فبـاهتوا ... لتزويـر نـصٍّ قيـل وهـو جنـين

فهذا القلق السياسي، وعدم الاستقرار النابع من الصراع مع الأعداء والمخالفين دعا الشاعر إلى حث الناس على النصرة واتباع الحق، وهذا الاضطراب حدا ابن حمزة نفسه على الالتفات إلى أنصاره طالبًا منهم النصرة وتعزيز قواته بالجند والعتاد؛ لمساعدته على دحض المناوئين ونشر دعوته في جميع أرجاء اليمن، من ذلك ما أنشأه طالبًا المساعدة من أمير مكة أبي عزيز قتادة بن إدريس[1]؛ إذ يقول في قصيدة يبلغ عدد أبياتها سبعة وثلاثين بيتًا[2]:

أَلا هَـلْ أَتَـى عَنَّـا عَلَـى بُعْـدِ دَارِهِ ... قَتَـادَةُ وَالفَـتْحُ الْمُبِـيْن يَـشيعُ

بَـأَنَّ الْكُمَـاةَ الـصّيدَ قَـصّافةُ القَنَـا ... أَتَتْهَـا جُمُـوعٌ مِـنْهُم وجُمُـوعُ

وصـارتْ لَنَـا صَـنْعَاءُ دَارًا وَهِجْـرَةً ... وَجَـاءَ لَنَـا فَـتْحٌ بِـذَاكَ سَـرِيعُ

وَقُـدْنَا إِلـى شَـطَّي ذَمَـار فَوَارِسًـا ... عَلَيْهَـا مِـنَ الـصَّبْرِ الكَـرِيْمِ دُرُوعُ

....

وَخَيْلُـكَ فـي شَـرْقٍ وغـربٍ مُغِيْـرَةٌ ... كَوَاميْـتَ لا يَنْمُـو لَهُـنَّ صَـرِيعُ

---

(١) هو قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم بن عيسى، يكنى أبا عزيز، ولد في ينبع سنة (٥٢٧هـ)، وتولى إمارة مكة سنة (٥٩٨هـ)، واتسع نفوذه إلى المدينة واليمن، له شعر جيد، خنقه ابنه وهو مريض، توفي سنة (٦١٧هـ). انظر: طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، الملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول، تحقيق: ك.و. سترستين، دار صادر، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص١٠٥؛ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، محمد بن أحمد الحسيني الفاسي تحقيق: فؤاد سيد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م، ٢/ ١٧٣؛ الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة عشرة، ١٩٩٩م، ٥/ ١٨٩.

(٢) ديوان ابن حمزة، ص ٢٥٥–٢٥٧؛ السيرة المنصورية، ١/ ٧٦–٧٨.

وما طُهِّرتْ أرضُ الحجَازِ مِنَ الْخَنَا ... إلى أن سَقَى أرضَ الحجاز نَجِيْعُ

فَأَرْسِلْ لَنَا منهَا ثَمَانِيْنَ فَارِسًا ... وعَشرًا وعشرًا فالإيابُ سريعُ

فَفِي اليَمَنِ الْخَضْرَاءِ مُلْكٌ مُسَيَّبٌ ... وجندٌ لأمرِ الآمرينَ مُطِيعُ

وَعِنْدِيَ أَنَّا دُونَ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ ... وأرضُكَ مِضيَافٌ لَنَا وَرَبِيْعُ

وقد جَمَعَ اللهُ الْمُهَيْمِنُ شَمْلَنَا ... بِكُمْ وجُفُون الظالمين هُمُوعُ

يطلب ابن حمزة في هذه الأبيات من أمير مكة دعمه بالفرسان؛ مؤكداً غايته في إخضاع اليمن لنفوذه من الحكم السائب، وإقامة الحق في أرجائها، مشيداً بخصال هذا الأمير، وأنهما يرميان إلى نهج واحد، وهذا الطلب نابع من الحركة الدائبة في أي بيئة تقوم على الصراع السياسي.

يتضح من النماذج السابقة الولاء والنصرة لابن حمزة، وبتأمل صور هذا الولاء يلحظ أنها جاءت متنوعة تنتظم وفق تسلسل الأحداث؛ فهناك النصوص التي أوردها الشعراء مرحبين ومعبرين عن ولائهم المطلق لدعوته ونصرتها، وهذا يأتي قبل القدوم لأي بلد، وهناك نصوص أخرى تبين فيها الولاء من خلال تأييد القرارات والتغييرات التي اتخذها بعد مدّ نفوذه ومسكه زمام الأمر، وثمة أشعار نقلت صوراً مختلفة من الولاء، تمليها الظروف الاجتماعية، فضلاً عن أولئك الذين عبروا عن ولائهم خشية سطوته وبطشه، وهناك من استغل المواقف الخاصة، ليعبر عن محبته واتباعه، كما نظمت أشعار حين حدوث التقلبات السياسية، والصراعات مع الأعداء، وقد اتسم معظم النصوص بالثناء على ابن حمزة، والعناية بالركائز التي جعلها دعائم لدعوته، كاتصال نسبه بآل البيت، ومحاربة أعداء الدين، ونشر الفضيلة، ودحض الفساد والضلال.

٢. القوة

وتأتي متتالية القوة بعد متتالية الولاء والنصرة من حيث الكم الشعري في نصوص البحث، ولا غرو في ذلك؛ إذ إن اليمن كانت تعج بكثير من الصراعات السياسية والفكرية في تلك المدة، وكان ابن حمزة على إدراك تام بهذه الصراعات، وما سيواجهه من معارضات متنوعة، فهناك النفوذ الأيوبي، وهناك نفوذ لبعض أهل

المذاهب الفكرية التي لا تتفق مع مذهب ابن حمزة[1]؛ لذا تسلح بقوة البأس في دعوته، وسعى إلى تكريس هذا المبدأ سواء في نفوس المناصرين أو المناوئين والمعارضين؛ ليضمن تأييد الفئة الأولى، ويفرض ما يسعى إليه على الفئة الأخرى؛ وقد سار على هذا النهج لمعرفته التامة بأهميته في تحقيق غايته، ولبسط نفوذه على جميع أرجاء اليمن.

وبتأمل النصوص الشعرية التي نظمت في هذه المتتالية يتجلى في خطابها السياق التاريخي، وانسجامها مع معظم الأحداث التي مرّ بها ابن حمزة؛ فحين بدأ الدعوة لنفسه بالإمامة، رأى أن القوة سبيل لإقامة الحق، ودحض الباطل، ونصرة المبادئ التي ارتكزت عليها هذه الدعوة؛ لذا جاءت بعض نصوص الشعراء المناصرين ملبيةً لهذه الركائز، من ذلك ما نظمه أحمد بن سعد القدم[2]؛ إذ يقول[3]:

إِنَّ ابْـنَ حَمْـزَةَ شَـاهِدَاه حـسامه ... وَمَقَامـه وَالْخَيْـل تَنْـشَحُ عَنْبَـرَا[4]

وَرِمَـاح معْتـرك وَجَـيْشٌ أَرْعَـنُ ... قَـدْ سَـدَّ مَـا بَـيْنَ الثُّرَيَّـا وَالثَّـرَى

وَتَـرَى الـصَّوَارِمَ والبنـود كَأَنَّهـا ... لَهَـبٌ تحـرّق فيـه مَوْجًـا أَخْـضَرَا

وَبِكَفِّـهِ عَلَـمٌ تَـرَاهُ أَبْيَـضَا ... يَـرِدُ العَجَـاج بِـهِ فَيَـصْدر أَحْمَـرَا

فالسياق التاريخي يتضح في الخطاب الشعري من خلال هذه اللوحة الشعرية التي يرسمها صهيل الخيل، ومنظر الرماح والسيوف، وتمزيق الأعداء، وربطها بذكر المدن التي امتد إليها نفوذه؛ ليعبر بهذه الصورة عن أن هذه القوة وظفت لإرساء البواعث التي أملت على ابن حمزة الدعوة لنفسه بالإمامة.

---

(١) انظر: تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي، أحمد الشامي، ٣/ ٥٨.

(٢) هو أبو الحسن أحمد بن سعد القدم، شاعر عالم، متبحر في العلوم العقلية والشرعية. انظر: مطلع البدور، ابن أبي الرجال، ١/ ٣٠١-٣٠٢؛ تاريخ اليمن الفكري، الشامي، ٤/ ١٥.

(٣) السيرة المنصورية، ١/ ١١٧-١١٨.

(٤) نشح: شرب دون الري، أو حتى امتلأ ضد، والخيل: سقاها ما يفثّأ غُلّتها. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة (نشح).

وينسجم الخطاب الشعري مع السياق التاريخي في هذه المتتالية (القوة) من خلال وصف الشعراء الشدة في الحروب، والحث على اقتفاء سبلها ضد الأعداء، مؤكدين أن تحقيق الغاية لا يمكن أن يأتي على أكف الراحة، وهذه مرحلة تتلو ما سبقها من الأبيات التي قيلت في الثناء دون ربطها بمعركة أو حدث، أما ما نظم في مناسبة حربية فهو يسعى إلى بث روح النصر في نفوس الأتباع، والإشارة إلى النتائج الطيبة التي تتحقق بعد هزيمة الأعداء، من ذلك ما قاله مفرح بن مسعود[1] بعد أن انتصر ابن حمزة على إحدى المدن القريبة من صنعاء، وغنم أموالاً جليلة من الإبل والبقر والغنم[2]:

أَوَمِيْض بَـرْق فـي عـريض سـاري ... حَتّـى طلـوع الفجـرِ ذات غبـار

فـي لُجّـة نَقْـعُ الجيـادِ سـحابها ... يَغْـشَى الوهـاد بفيلـق جـرّار

نـسج الحديـد لباسـها وعـصيها ... بـيض الـصوارم والقنـا الخطـار

زارتْ علـى بعـد المـزار عـدوّها ... تحـت اللـوا المحفـوف بالأنـصار

....

قَادَ الْخَمِيْسَ مِنَ الْخُمُوسِ فَظُفِّرَتْ ... يَـوْمَ الْخَمِـيس يـداه بالفجـار

زم الجيـاد علـى ابتعـاد مـزاره ... والعـزمُ يـسبقُ حلبـة الإنـذارِ

ورأتْ عـساكرُه الغنيمـةَ جمـة ... فتـداعتِ الأحـرار بـالأحرار

وغـدَتْ منـازلُ ضِـدّه قـد أقفـرت ... مـنهم وأذن أهلهـا بـدمار

فهذه الأبيات وظفت في هذا الحدث التاريخي، وما حققه من غنائم وزعت على المشاركين فيه؛ وهذا التوظيف يبعث في نفوس الجنود والأتباع الآمال لما سيكسبونه من خير جمّ إذا واصلوا المسيرة في قوة العزم، وخوض غمار الحروب ضد الأعداء، ويتآزر الخطاب الشعري مع هذا السياق في إبراز الفرحة والنشوة بالانتصارات من علية القوم؛

(١) يذكر أنه أحد القضاة والفقهاء بمدينة صنعاء. انظر: السيرة المنصورية، ٤٨/١.

(٢) السيرة المنصورية، ٧٢٩/٢.

لأن طموحاتهم وتطلعاتهم كبيرة في سيادة اليمن، وهيمنتهم عليه؛ لذا حين تأمل الأبيات التي نظمها بعضهم يلحظ فيها الفرحة الغامرة بالانتصار، لأنه يبشرهم بنجاح الدعوة، من ذلك ما نظمه الأمير علم الدين سليمان بن موسى[1] من أبيات مخاطبًا ابن حمزة أثناء غزوته في ذَمَرْمر[2]، منها[3]:

أضحت على الحصن المنيع عواكفًا ... كالطير عاكفة على أم القرى

أَرْخَيْتَهَا خَرْسَاءَ تعتسف السُّرى ... فَصَبَحْتَهُم كَصَبَاح عَادٍ صَرْصَرَا

وَتَرَكْتَهُم لِلْخَامِعَاتِ تَنُوشُهُم ... وَهَتَكْتَ حُرْمَتَهُمْ وَعُدْتَ مُظَفَّرَا

فَكَأَنَّهُمْ زَرْعٌ دَنَا لِحَصَادِهِ ... ذَاكَ الْجَزَاء لِمَنْ عَصَى وَتَجَبَّرَا

تتآزر المقومات الفنية في الخطاب الشعري؛ لترسم مشهد الحرب الضروس ضد الأعداء، ويتبين ما تحمله نفوس القادة من حماسة نحو تحقيق أهداف ابن حمزة، وما تعكسه من قوة البأس والشراسة في دحض المناوئين والأعداء، وإحلال الدمار والخراب بديارهم بعد عمرانها وأفول سكانها، في إشارة إلى أن هذه السبيل ستطول كل من عارضهم، أو حاول التصدي لتحقيق مساعيهم.

وتتعاضد الموهبة الشعرية مع السياق التاريخي في انسجام يواكب الحدث؛ لتكشف قوة البأس التي يحظى بها ابن حمزة، وتمنح الخطاب القدرة على في إيصال الرسالة من خلال النص الشعري؛ لتعطي "نسقًا من الدلائل، ولكنه يتعلق بالأثر الذاتي المتحقق في المتلقي"[4]، وصولاً إلى الغاية المتمثلة في تأكيد الثقة بنصر ابن حمزة،

---

(١) هو الأمير علم الدين سليمان بن موسى الحمزي، أحد قادة عبدالله بن حمزة، وولاه على الجوف وأعمالها. انظر: السيرة المنصورية، ١٨٧/١–١٨٨.

(٢) ذَمَرْمر: حصن في أعلى قرية شبام الغراس شمال شرق صنعاء بمسافة نحو ثمانية عشر كيلاً. انظر: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، الحجري، ٣٥٠/٢؛ معجم المدن والقبائل اليمنية، المقحفي، ص١٦٨؛ هجر العلم ومعاقله، إسماعيل الأكوع، ٧٨٨/٢ .

(٣) السيرة المنصورية، ٥٢٠/٢–٥٢١.

(٤) بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ترجمة: محمد الولي، محمد العمري، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٨٦م، ص١٩٥.

وتحقيق غايته في دحر الأعداء، ونشر الحق، وفي الوقت ذاته التهديد لمن سوَّلت له نفسه المعارضة أن مصيره الهلاك مثل ما حل بغيره من المخالفين له، من ذلك ما نظمه عمرو بن علي العنسي، بعد أن انتصر ابن حمزة على بني صريم[1]، حيث يقول[2]:

أَمَيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ عَتَا أُنَاسٌ ... فَأَعْقَبَهُمْ عتوّهمُ الوَبَالا

وظنّوا في خلافهمُ رَشَادا ... فَكَان خلافُهُمْ لَهُمُ ضَلالا

همُ كفروا أَيَادِيَ مِنْك غُرًّا ... أفدتهمُ بها جاهًا ومالا

أَرَادوا حَرْبَ جُنْدِ اللهِ جَهْلاً ... وهل عقل الذي نطح الجبالا

هذا النص ونظائره من النصوص توافق نهج ابن حمزة، ويزداد نشوة بسماعها؛ لأنها تساير مبتغاه؛ لذا أمر ابن دعثم (كاتب السيرة المنصورية) بالإجابة عنه، فنظم قصيدة يبلغ عدد أبياتها خمسة وثلاثين بيتًا، منها[3]:

طغتْ سفهاءُ مِنْ أَبْنَا صريم ... فَأَعْقَبَهُم شقاقهمُ وَبَالا

وَظَاهَرهمْ على العصيان قَوْمٌ ... فَمَا زَادوهمُ إلا وبالا

عَتَوا عن أمر ربّهمُ ضلالا ... ومنّاهم زَعِيمُهم المحالا

فهذا النص الذي نُظم إجابة لسابقه يؤكد ابتهاج ابن حمزة بحظوته بكثير من المناصرين، وكان لشاعريته أثر في تهافت الشعراء على تبجيله، وفي الوقت نفسه الإجابة بشعر منه، أو توجيه الأمر لغيره؛ وهذا باعث لكثرة النتاج الشعري الذي نظم في سياق الأحداث التي خاضها، والشاعران في هذين النصين يصوران ما حل بالمعارضين لدعوة ابن حمزة، ومصيرهم البائس في مشهد يؤكد قوة بأسه وبطشه بهم.

---

(١) قبيلة من حاشد، وأحد الأقسام الأربعة منه، وهم: بنو صريم، خارف، وعِذَر، والعُصَيمات، وأهم بلدان بني صريم: مدينة خَمِر. انظر: معجم البلدان والقبائل اليمنية، المقحفي، ٩٠٦/١.

(٢) السيرة المنصورية، ١/ ٣٥٧.

(٣) المصدر السابق، ٣٥٧/١-٣٥٩.

وإذا كان النصان السابقان يصفان ما حل بالأعداء؛ فثمة نصوص وجهت للأعداء تهديدًا لهم قبل المواجهة؛ محاولة بثّ الرعب فيهم، والتأثير في نفوسهم، من ذلك ما نظمه محمد العنسي[1] واصفًا قوة ابن حمزة، وحاثًّا على إيصال تهديده لوردسا، إذ يقول[2]:

يَلْقَى المقاول من ذؤابة يعرب والغلب داعية أهلْ مِنْ مُدْرِكِ؟

مَنْ مُبْلِغ وردسار الوَكْتَة[3] من قولِ دَارٍ بِالأُمُورِ مُحَكَّك

وتسفر متتالية القوة في الخطاب الشعري عن هدفها محققة توأمة مع السياق التاريخي؛ إذ اتسمت بوضوح وجهها أمام المتلقي؛ لأن الشاعر قصد الواقع دون لوي لأعناق النص[4]، من خلال التهديد بقوة بأس ابن حمزة وشدة وطأته في الحرب، وفي الوقت ذاته بيان أن هذا المصير مرتبط بعدم اتباعه، مع التأكيد بأن الخضوع سبيل إلى النجاة، من ذلك قصيدة نظمها أبو الغيث بن أحمد الأصبهاني[5]، موجهة إلى أهل صنعاء، منها[6]:

وَلَمّا أَتَتْنَا كتْبُكم لِمُلِمّة جعلنا جوابَ الكتْبِ حمرَ الكتائب

---

(١) هو الفقيه محمد بن سليمان العنسي، من المناصرين لابن حمزة، الذين لازموه في كثير من حروبه، وهناك خلط في كتب التاريخ والتراجم بين الفقيه محمد بن سليمان العنسي، وابنه سليمان بن محمد خاصة فيما ينسب إليهما من أشعار. انظر: السيرة المنصورية، ١/ ٥٠؛ مطلع البدور، ابن أبي الرجال، ٢/ ٣٥٩-٣٦٠.

(٢) السيرة المنصورية، ١/ ١٥٢-١٥٣.

(٣) الوَكْتَةُ: النقطة في الشيء. انظر: القاموس المحيط الفيروزآبادي، مادة (وكت).

(٤) انظر: الوضوح والغموض في الشعر العربي القديم، عبدالرحمن بن محمد القعود، مطابع الفرزدق، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠، ص٤٢.

(٥) أحد القضاة المناصرين لابن حمزة، وله أشعار تؤكد ولاءه له. انظر: السيرة المنصورية، ١/ ١١٩، ١٢٠، ٢١٦، ٢٢٤، ٤٤٧.

(٦) السيرة المنصورية، ١/ ٢١٦-٢١٧.

بَعَثْنَـا إِلَـيكم بالـسلابِ مـن القنـا ... بِـدارًا وبـالجُرد العتـاق الـسلاهب[1]

تـشبّ حواميهـا لَـدى كـلّ مـاقِطٍ ... بِنَـارِ الْمَنايـا لا بِنَـارِ الْحُبَاحِـبِ[2]

....

هلمّـوا إلـى نـصرِ الإمَـامِ بْـنِ حَمْـزَة ... كَـرِيْم السَّجَايا مـستهل الرَّوَاجِـبِ

دَعَـاكُمْ فَلَبّـوهُ عُجَـالاً وَآرْقِلُـوا ... إِلَيْـهِ كَإِرْقَـالِ الْجِمَـالِ الْمُـصَاعِبِ[3]

فيتجلى في خاتمة الأبيات الدعوة إلى اتباع ابن حمزة؛ كي ينجوا من حربه عليهم، ويأمنوا في أوطانهم، وتصان حقوقهم؛ فالمعنى سافر، والغاية جلية، وهذه أكدها ابن حمزة نفسه في إحدى قصائده مجيبًا عن كتاب أتى إليه من اثنين من أمراء بني رسول؛ موضحين فيه الاختلال في بعض بلدان اليمن، وانبساط أيدي المفسدين في قطع السبل؛ فأجاب برسالة ضمنها قصيدة شعرية يبلغ عدد أبياتها ثمانية وأربعين بيتًا، منها[4]:

إِنّ النَّجـاةَ لُـزُومُ خَـوْفِ البَـاري ... وَهْـوَ الْمُزَحْـزِحُ مـن عَـذابِ النَّـارِ

طَـالَ الثِّـوَاءُ مـن النَّفيـرِ إلـى العِـدَى ... ولقـد عُهِـدْتُ ومـا يَقِـرُّ قـرَارِي

كافَحـتُ أربـابَ الـضَّلال عـن الْهُـدَى ... مُتَجَـرِّدًا قبـلَ اخـضرارِ عِـذَارِي

حَمَّلْـتُ أوزاري علـى عَبْـل الـشَّوَى ... شَـنْجَ النَّـسا لأُحـطَّ مـن أَوْزَارِي[5]

---

(١) السلاب: الثياب السود. والسلاهب: من الخيل ما عظم وطال عظامه. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادتي: (سلب، سلهب).

(٢) نار الْحُباحب: ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة (حبّ).

(٣) المصاعب: الفحول. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة (صعب).

(٤) ديوان ابن حمزة، ص٢٦٣؛ السيرة المنصورية، ١/١٨٤-١٨٧.

(٥) العبل: الضخم. الشوى: القوائم. شنج: المنقبض. النسا: عرق من الورك إلى الكعب. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، موادّ: (عبل، شوى، شنج، نسا).

يَـا رَاكِبِـي مَـتْنَ العنَـادِ وَسَـالِكِي سُـــبلَ الـــضَّلالة آذنُـــوا ببـــوارِ

فـالْجُرْدُ تـصنعُ والـصَّوارِمُ تُجْتَلَـى والأســدُ تَخْطُــرُ بالقنــا الْخَطَّــار

وأنــا الــذي عرفــتُ مَـوَاطِنَ صَـبْرِه فــي كــلّ يــومٍ حالــكِ الأسْــتَارِ

وبعد هذه الأبيات أخذ يثني على الأميرين من بني رسول اللذين بعثا إليه الكتاب، ويتضح من صدر الأبيات سياق الويل والثبور للمعاندين، والمفسدين؛ ليرسخ في الأذهان أن إحدى ركائز دعوته محاربة الضلال، وإرساء العدل، والأمن؛ ما يؤكد أنه جعل القوة ملازمة لهذه الدعوة، ولمعرفته التامة بوعورة الدرب في نيل غايته.

يتبين من العرض السابق لمتتالية القوة أنها نالت نصيبًا وافرًا من النماذج الشعرية، وقد أدى إلى ذلك احتدام الصراعات السياسية، واختلاف المعارضين، وتمسك البعض الآخر بنفوذه، وعدم الاقتناع بدعوة ابن حمزة، ومع أن القوة شاعت في كثير من النصوص إلا أنها كانت محصورة في سياقات محدودة تنتظم فيما بينها؛ لتعطي صورة عمّا تواجهه هذه الدعوة من المناوئين، ولكن في الوقت ذاته تبدر الإشارة إلى أنها وظفت لتحقيقها؛ إذ وردت على أنها السبيل لإقامة الحق، وجاءت في سياقات تبث روح الحماسة في الجنود والأتباع، وأبرزت في بعض الأشعار شدة وطأة الحرب أثناء المعارك، كما قدمت لوحة فنية من بسالة الجيوش ووصف الانتصارات، ووجهت في بعض الأحايين التهديد السافر للمعاندين والمعارضين.

٣. حرب الطغاة

تأتي متتالية (حرب الطغاة) بعد المتتاليتين السابقتين: الولاء والنصرة، والقوة؛ في تسلسل للخطاب الشعري ينسجم مع السياق التاريخي، ويتناغم مع وقائع الأحداث؛ إذ إن الولاء والنصرة مطلب رئيس لكسب المؤيدين، والقوة سبيل إلى دحض المعارضين وضمهم قسرًا، ويأتي حرب الطغاة مبررًا هذا النهج من قبل ابن حمزة، الذي جعله إحدى ركائز دعوته لنفسه بالإمامة، ولم تكن هذه الركيزة من لبنات فكره، بل هي مبدأ من

سبقه في هذه الدعوة، التي ترمي إلى "الخروج على الظلم والجور"[1]، وهذا ما دعاه إلى تطبيقه عمليًا.

وقد أورد الشعراء هذه المتتالية للتأكيد على هذا المبدأ، وبخاصة نصوص ابن حمزة نفسه، من ذلك قصيدة يبلغ عدد أبياتها أربعة وثلاثين بيتًا؛ استهلها بالفخر بانتسابه إلى آل البيت، ممهدًا بهذا الفخر إيراد الباعث إلى دعوته لنفسه بالإمامة، إذ يقول والغز[2] يومئذ بصعدة[3]:

إنْ لَمْ أُسِرْها إلى الأعداءِ ساهِمَةً ... قُبِّ البُطُونِ تَبَارى كَالسَّرَاحِيْنِ

تُرْدِي بِكُلِّ طويلِ الباعِ مَنْبَتُهُ ... في طينةِ الْمَجْدِ لا طينِ البساتينِ

في مأزقٍ مثل صدع الرمح مضطرم ... فرسَانه بين مَضْروبٍ وَمَطْعُونِ

نَلْقَى به الخيلَ كالمرضى مُكَلَّمة ... مِمّا يُحَكِّمُ فيها كلُّ مَسْنُون

وماجِدٍ قد أطار السيفُ هامَتَه ... فماتَ في سابغِ الأعطافِ مَوْضُونِ[4]

حَتّى تَقُوم قَنَاةُ الدّين ثابتة ... وقد تَزَحْزَحَ عَنْها كلُّ مَلْعُونِ

من فاسقٍ ضلّ بالتأويلِ مذْهَبُه ... رفضُ الأئمةِ ذي نَكْثٍ وتَلْوين

وجاهرٍ بفنونِ الفسقِ يعلنُه ... يَظَلَّ يركُضُ منه في مَيَادين

وكافرٍ جاهلٍ تَرْتِيْبَ خِلْقَتِهِ ... وأنّ مَبْدأ خَلقِ المرءِ مِنْ طين

فهذه الأبيات تعبر بوضوح عن هدف ابن حمزة في الدعوة لنفسه بالإمامة، وتسفر عن ركيزة حرب الطغاة، من خلال وصف فسقهم، ومخالفتهم الشرع، وجهرهم بالمعاصي، وفي هذا السياق محاولة لاستمالة عاطفة المتلقي، وذلك بتركز بؤرة النص

---

(١) قيام الدولة الزيدية في اليمن، د. حسن خضيري أحمد، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص١٣٦.

(٢) يقصد بهم الأيوبيين الذين كان يسيطرون على اليمن.

(٣) السيرة المنصورية، ٢/٦٥٣-٦٥٦.

(٤) الموضون: الدرع المنسوجة. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة (وضن).

على أمرين رئيسين، الأول: الفخر بالانتساب إلى آل البيت، والثاني: الإفصاح عن أحد مبادئ دعوته الرئيسة المتمثل في حرب الطغاة، وقد أسعفت موهبته الإبداعية، وملكته الشعرية التأكيد على هذا المبدأ في أكثر من حدث ومناسبة[1].

وقد وظف بعض الشعراء المؤيدون لدعوته هذا المبدأ في الحث على بث العزيمة والمضي في محاربة الأعداء، حين عزم ابن حمزة الخروج إلى إحدى المدن، من ذلك ما كتبه شاعر مجهول في صدر كتاب لابن حمزة لما عزم الخروج إلى مأرب، إذ يقول[2]:

أَيُهْضَمُ دِيْنُ أَحْمَدَ أَوْ يُضَامُ ... وتُنْتَهَكُ الْمَظَالِمُ والْحَرامُ

وتتَّخذ المعازِف والملاهي ... وَيُشْرَب في قرى الشّرَفِ الْمُدَامُ

وتَخطر في أزقّتها البغايا ... يُعَظِّمها الْمشَيِّب والغلامُ

وعدلك شامِلٌ وجداك مُغْن ... وَسَيْفُكَ قَاضب فيه الحمام

وأنْتَ لأهلِ هذا العصر ربّ ... تدبر أَمْرَهُم وهمُ نيام

وتنْظم دينهم وتذبّ عنه ... وَتَمْنعه بسيفك يا إمامُ

فَجَرِّدْ عزْمة لله واقصد ... طهارتها فقدْ عظم الأثامُ

وحولك من بني الزهراءِ أُسْدٌ ... ضَراغمةٌ جَحَاجِحَةٌ[3] كِرَامُ

فهم ظَهْرُ الديانة حيث كانوا ... بأجمعهم وأنت لهمُ سنام

أتحرِق نار حربك كل عود ... ويسلم حرها الشجر الثُّمَام[4]

---

(١) للاستزادة، يمكن الاطلاع إلى قصائد نظمها ابن حمزة، أكد في خطابها الشعري هذا المبدأ من ذلك قصيدة من أربعة وخمسين بيتًا، وقصيدة أخرى يبلغ عدد أبياتها خمسة وأربعين بيتًا. انظر: السيرة المنصورية، ١/ ٣٦٥، ٢/ ٥٥٩.

(٢) السيرة المنصورية، ١/ ٣٧٤-٣٧٥.

(٣) الجحْجَاح: السيد، والجمع (جحاجحة). انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة (جحح).

(٤) الثُّمام: نبت، وقد يستعمل لإزالة البياض من العين. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة (ثمم).

فهنا حث من الشاعر لابن حمزة للمضي في حرب الفسوق والعصيان، مع الإشارة إلى أن هذا الأمر هو أحد بواعث إمامته الرئيسة، ونلحظ المبالغة والغلو اللذين أسبغا على النص؛ في تصريح من الشاعر بالولاء، وتأكيد القناعة بفكر الدعوة وأهدافها[1].

وقد نظمت بعض النصوص في سياق التفاعل مع شكوى أهل بلد معين من انتشار الضلال والمعاصي؛ فحملت دلالات التهديد الصريح، في إشارة إلى توجيه حرب ضروس ضدهم إن لم يكفوا عما هم فيه من الآثام، وظلم الناس، من ذلك ردُّ ابن حمزة حينما جاءه كتاب يشكو فيه صاحبه من يام[2]، ويستغيث به؛ فكتب إليهم قصيدة يبلغ عدد أبياتها سبعة وثلاثين بيتًا منها[3]:

أَمَعْشَرَ يَامٍ منهجُ الحقّ واضح ... فإن تجهلوه أوضحته الصّفائحُ

أَتَانا على نأي الديارِ بأَنَّكم ... فَعلتُم أمورًا كان عنها مَنَادحُ

قَطَعْتُم سبيلَ المسلمين ضلالةً ... ولم ينهكم عن ذلك الفعلِ صالحُ

فَأَيْن بكم يا يامُ عند وصولنا ... إِذَا امتلأت بالدّارعين الأباطح

....

فَما عُذْرُنا في قَصْدِكُم في دياركُمْ ... وقد ظَهَرَت منكم خُطُوبٌ فوَادِحُ

نَكثتُم عُهُودًا جَمَّةً تعرِفُونَها ... لَهَا طَالِبٌ فيها الثَّنَا والممادِحُ

نطحتُم صخورًا راسياتٍ أصولُها ... تَصَدَّع منهن القُرُونُ النَّوَاطِحُ

---

(١) وللاستزادة، يمكن الاطلاع إلى قصيدة يبلغ عدد أبياتها تسعة وعشرين بيتًا. انظر: السيرة المنصورية، ٦٢٩/٢.

(٢) يام: من قبائل همدان ثم من حاشد، وهو يام بن أصبا، وقد ذكروا في نجران، إذ هي بلادهم، وكان لهم من قبل جبل يام ما بين بلاد نهم والجوف، وهو جبل واسع. انظر: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، الحجري، ٧٧٤/٢.

(٣) ديوان ابن حمزة، ص٢٩٢–٢٩٤؛ السيرة المنصورية، ٧٧٠/٢–٧٧٣.

وَأَنْسِيتُمُ الإحسَانَ والعفوَ عنكُمُ ليالِيَ ضَاقَت بالقُلُوب الجوامِحُ

....

ولابُدّ من يوم عليكم عِصَبْصَبٍ ففي السيفِ بُرهانٌ مع الحقِّ واضح

هُنالك يَنْسى الشيخُ فيها صبُوحَهُ إذا طلعت في روسِهنّ المصابح

وَيَحْدُثُ أَمْرٌ لا يُنادَى وليدُهُ تَعطَّلُ عنه الشَّايلاتُ اللواقحُ

يتسم هذا النص بـ (الكفاية والإنجاز)؛ إذ يمثل رسالة ذات هدف من خلال تعانق المقومات الفنية لإيضاح الغاية من المرسل إلى المتلقي[1]، وذلك بانسجام تام بين الخطاب الشعري والسياق التاريخي؛ حيث وجه الشاعر خطابه بالتهديد، والاستنكار لما بَدر من أهل يام، وما عمّ عندهم من المخالفات الشرعية، مؤذنًا بحرب قاسية ضدهم، مصرحًا بأنه لن يثنيه عن هذا العزم إلا الإنابة والرجوع عن ضلالهم كما في قوله[2]:

فإن لم تُنِيبُوا قَبْلَهَا فَتَوقَّعُوا مُدَمْدَمَةً تَبْيَضُّ منها المَسابِحُ

هذا البيت هو خاتمة القصيدة، وجاء بعد حشد صنوف العذاب التي ينوي ابن حمزة أن يذيقها يام جراء واقعهم الذي وُصف شيء منه في النص؛ وجاء سياق مقطع القصيدة؛ ليترك الخيار لهم لكنه بيت واحد يتيم مقابل سيل عارم من التنكيل وصنوف العذاب التي ساقها الشاعر في أبيات القصيدة؛ وهذا يعبر عن قوة بأسه، وإصراره على تحقيق أهدافه، وما تتسم به هذه الشخصية من الشدة في سبيل بسط نفوذ الدعوة بالإمامة وإرسائها.

إن هذا الخطاب الشعري المتسم بالقوة والعنف؛ يعبر عن قسوة واقع البيئة بشتى أنواعها في اليمن، ويرسم ملامح الصراعات الدامية، وما يعانيه أهل هذه البيئة من

(١) انظر: اللغة والخطاب، عمر أوكان، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠١م، ص٢٧.

(٢) ديوان ابن حمزة، ص ٢٩٤؛ السيرة المنصورية، ٢/٧٧٣.

الاضطرابات، يبين ذلك ما أنشأه يحيى بن أحمد[1] حينما أقام أنصار ابن حمزة ببلاد خولان[2] مدة طويلة في أيام الغز، ونالهم من المشقة وطول الانتظار؛ فكتب هذا الشعر يحكي فيه أحوالهم، يقول[3]:

كَتَبْنَا وقَدْ ضاقتْ عَلَيْنَا الْمَذاهبُ ... وَأَعْيَتْ عَلَيْنَا في البلادِ المطالبُ

سئمْنَا حَيَاةً نَحْن فيها وعيشَةً ... مُكَدَّرَةً قد نغَّصَتْها النوائبُ

ولا عيش ما لم ترقل الخيلُ في الدِّما ... وَيُنْصَبُ ما بينَ الدُّرُوبِ المضاربُ

وتُنْشَرُ راياتُ الإمامِ بصعدة ... وتجري على الباغينَ فيها المصائبُ

وَيَنْفَكّ بُرْجٌ نَحْنُ فيه وتَنْجَلي ... من الظُّلْمِ والتوبيخِ عَنّا الغَيَاهبُ

فهذا النص يؤكد معاناة المجتمع من اضطراب الحالة السياسية، وأذاهم من ويلاته، ويكشف في الوقت نفسه أسباب إقدام ابن حمزة على استعمال أسلوب التهديد للطغاة؛ مستميلاً موقف مؤيديه في بعض البلدان التي يستولي عليها الأعداء، ومثل هذا النداء في هذا النص يلبي مبدأً من مبادئ دعوته، ويبعث في نفسه العزم على مدّ نفوذه مستغلاً فرصة هذا التأييد.

يتجلى من العرض السابق لمتتالية (حرب الطغاة) أنها حظيت بنصيب من نصوص الشعراء، وجاءت في سياقات محدودة تتمثل في إيرادها لإثباب أحد مبادئ الدعوة الرئيسة وترسيخه، وأيضا نظمت تهديدًا ووعيدًا للمخالفين والمعارضين، مُعللاً ذلك بانتشار الفساد والفسوق والضلال، كما أنها جاءت تعبر عن الضيم والشكوى من قبل المؤيدين في بلاد الأعداء داعين ابن حمزة لانتشالهم من أحوالهم البائسة، وقد اتسم

---

(١) هو يحيى بن أحمد الزيدي الصعدي، كان عالِمًا أديبًا، مجيد الشعر، وأحد فقهاء عصره، ويلقّب النورَ الزيدي. انظر: السيرة المنصورية، ٢/ ٧٧٤؛ مطلع البدور، ابن أبي الرجال، ٤/ ٤٨٦.

(٢) خولان: من القبائل اليمنية الكبرى، وهي ثلاثة أقسام: خولان الطِيَال، وخولان ابن عامر، وخولان قضاعة، وبيت خولان موضع في رأس جبل غربي صنعاء. انظر: معجم البلدان والقبائل اليمنية، المقحفي، ١/ ٥٨٦-٥٨٧.

(٣) السيرة المنصورية، ٢/ ٧٧٤-٧٧٦.

الخطاب الشعري في بنيته الفنية بالوضوح، والمباشرة في القصد، وانتقاء المعجم المحقق للمعنى، بعيدًا عن التقعر والغريب، أو استهلال القصائد بمطالع تقليدية؛ وهذه نتيجة لتأثر الخطاب الشعري بالسياق التاريخي الذي جعله يتسم بهذه الصفات.

٤ـ النسب

ويلحظ من العرض السابق أن المتتاليات السابقة (الولاء والنصرة، القوة، حرب الطغاة) تمثل متتاليات حظيت بنصيب وافر من ألسن الشعراء، وحين تأملها يتبين أنها نتائج أفرزتها دعوة ابن حمزة لنفسه بالإمامة، ما جعلها تحتاج إلى بواعث ومسببات مقنعة إلى شيوعها، وهذا ما عبرت عنه النصوص كما سيتجلى في عرض المتتاليات الآتية، المتمثلة في (النسب، نشر الدين، الأخلاق النبيلة)، وهذا يعطي صورة من الاتزان بين نصوص الشعراء، ويعطيها التكاملية بين نتائج الدعوة وأسبابها؛ وحين تأمل متتالية النسب؛ يتجلى أنها إحدى الدعائم التي أوردها الشعراء، وأوردها ابن حمزة نفسه مسوغًا لهذه الدعوة؛ لأنها تمثل أحد أعمدتها الرئيسة[1]؛ كما يتضح أنها لم ترد في نص مستقل، وإنما كانت تأتي في معظم النصوص بصحبة إحدى المتتاليات الثلاث الأوليات، من ذلك ورودها مع النصوص التي نظمت في الولاء والنصرة، كما في أبيات للحسن بن عزوي سمّاها "هدية الإنصاف للمعارضين من الأشراف"، يجسد فيها الولاء والنصرة لابن حمزة، والحث على عدم اتباع الأعاجم، مشيرًا إلى اتصال نسبه بآل البيت؛ إذ يقول[2]:

قُـلْ لِمَـنْ يَخْـدِمُ الأَعَـاجِمَ مَهْـلا ... كَيْـفَ تُمْـسِي مَـوْلًى وَتُـصْبِحُ عَبْـدا

مَـا كَـذَا مَـنْ يعـدّ حيْـدرة الطّهـر ... أبًـــا والنَّبِـــي أَحْمَـــدَ جَـــدَّا

كيـفَ تَخْتـار مـن قـيم الظّلـم غيًّـا ... وتـــأبى مـــن قـــيم الـــدين رشـــدَا

كُـنْ عـصامًا وحـز بـسيفك أرضـا ... وإذا شـــاد مفخـــرًا شُـــدْتَ مَجْـــدا

---

(١) انظر: الزيدية (نظرية وتطبيق)، علي بن عبدالكريم الفضيل، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمّان، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص١٢.

(٢) السيرة المنصورية، ٢/٥٨٢-٥٨٣.

والـــبلاد التـــي الإمـــام حواهـــا لا تعـــــرّض لهـــــا ولا تتعـــــدّى

وعلى هذا النهج في سياق النسب مع الولاء والنصرة قول أحد الشعراء، مشيرًا إلى اقتفاء ابن حمزة سيرة آبائه[1]:

بَلِّـــغْ سَـــلامًا كَالْحَدِيْقَـــةِ جَادَهَـــا نَـــوّ الرّبيـــعِ بِعَـــارضٍ هَطَّـــالِ

منّـــا إلـــى الْمَـــوْلى ابْـــنِ حَمْـــزَةَ إِنَّـــه غـــرضُ النُّفـــوسِ وغَايَـــةُ الآمـــالِ

الوَاهِـــب الْجـــرْد العتـــاق تَبَرّعًـــا مِـــنْ غَيْـــرِ تَعْـــرِيضٍ وَغَيْـــرِ سُـــؤَالِ

وَالْمُقْتَفِـــي آثـــارَ آبـــاءٍ لَـــهُ وَالـــشِّبْلُ يَحْـــذُو سِـــيْرَةَ الريبـــال[2]

وقد صاحب المدح باتصال النسب بآل البيت القوة في انسجام يعبر عن أنها نابعة من شرف نسبه، من ذلك قول يحيى بن أحمد حجلان[3] من قصيدة امتدح فيها ابن حمزة، ذاكرًا الرعية وطول الأمد عليهم حينما كان بيت المال معطّلاً مدة الإقامة بصعدة[4]:

خَلِيْفَـــةَ اللهِ عَبْـــدَاللهِ أفـــضل مـــن فـي المجـد مـن آل ياسـين لـه قـدمُ

مـن آلِ هَاشِـم مـنْ بيْـتِ النّبـوّة فـي بَيْـتِ الْخِلافَـةِ مـا فـي عـودِهِ وَصَـمُ

أيَّامـــه غـــرَر فـــي الـــدهْرِ مُـــشْرِقة بنورِهـا قـد تجلّـى الظلـمُ والظُّلَـمُ

تهتـزّ للمجْـدِ كالغـصنِ الرَّطِيـب ومَـا هزّتـــه ريـــحٌ ولكـــن هـــزّه كـــرمُ

---

(١) المصدر السابق، ١/٣٨٠.

(٢) الرئبال: الأسد. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة (رأبل)، وسهلت الهمزة في البيت لإقامة الوزن.

(٣) هو يحيى بن أحمد بن حجلان الوادعي الزيدي، أحد الأعيان والعلماء بهجرة معين، وله شعر فصيح في عبدالله بن حمزة. انظر: مطلع البدور، ابن أبي الرجال، ٤/٤٨٥-٤٨٦.

(٤) نفسه، ١/٢٤٦.

فـي كفّـه صـارِم ذو رونـق خَـذِمٌ[1] كأنـه قـبس فـي الكـفّ يـضطرم

يثني رؤوس المـذاكي وهـي سـاهمة وينثني عـن رُبَـى الهيجـاء وهـي دم

كما ضمن الثناء على نسبه في الحروب والأحداث، تمجيدًا لصنيعه وقوة بأسه في حرب الأعداء، وعمد بعض الشعراء إلى ذكر الأحداث التاريخية تأكيدًا على شرف هذا النسب، وعمق جذوره، من ذلك ما قيل في حرب الجنات ليحيى بن مكني، إذ أنشأ قصيدة يبلغ عدد أبياتها تسعة وعشرين بيتًا، منها[2]:

اعمـلْ عواملـك المـسلولةَ الْخَـذِما وَاسْتَخْدِمِ السَّيْفَ أنّى شِئْتَ والْقَلَمَا

....

فـي موقـفٍ صـدرتْ حمـرًا عواملـه ريًّـا وَقَـدْ وَرَدَتْ بـيض الـصدورِ ظَمَـا

عـاداتُ آبائـكَ الـشمّ الكـرام ومَـنْ يُـشْبِه أَبَـاه عَلَـى حـالٍ فَمَـا ظَلَمَـا

أيّـام بـدْرٍ وأحْـدٍ والنّـضِير ومـا فـي خَيْبَـر وحنـين ذكْـرُهُ عَلَمَـا

يتجلى من النصوص السابقة التي تضمنت الثناء على نسب ابن حمزة الانسجام بين الخطاب الشعري والسياق التاريخي؛ الذي اتضحت فيه بواعث هذا الثناء؛ إذ حرص الشعراء على مسايرة مبادئ هذه الدعوة، وسياقها للتأكيد على الولاء والنصرة لها، وجعلها دافعًا لاستخدام القوة والبطش ضد الأعداء والمعارضين، وإيرادها في خضم الحوادث والحروب تهديدًا بالفتك، وأن هذه الدعوة قائمة على أساس متين، لن يرضى ابن حمزة بغير مدّ النفوذ وبسطه على جميع المدن والقرى؛ لذا اتسم معظمها بالمبالغة والغلو.

٥ ـ السمات النبيلة

ومن المقومات الرئيسة لهذه الدعوة شروط صرَّح بها ابن حمزة وذكرها في رسائله، وخصها بقسم سمّاه (شرائط الإمامة)؛ تتمثل في سمات نبيلة يلزم توافرها في

---

(١) خذم: قاطع. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة (خذم).

(٢) السيرة المنصورية، ١/ ١٦٤–١٦٥.

الإمام، يأتي في مقدمتها: الهدى، والرشاد، والعدل، والزهد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة الكفر، والرأفة، وثبات الرأي، ورجاحة العقل، والكرم، ومساعدة المحتاج[1]، وقد ساقها الشعراء في نصوصهم للتأكيد على ولائهم المطلق له، وإثبات أحقيته بالإمامة، وتلبية لما كان يدعو إليه؛ ما جعلها تأتي في سياقات نصية متنوعة؛ لكنها جميعًا تنتظم في إثبات أهلية شخصيته للدعوة لنفسه بالإمامة، من ذلك ما نظمه محمد بن ذعفان بن أبي عمرو[2] مادحًا ابن حمزة، ومثنيًا على سماته النبيلة، مشيرًا إلى خصال: الهدى، الرشاد، العدل، محاربة الظلم، الأمن، العلم، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ يقول[3]:

قـرّ عَيْنًـا بِـكَ الْهُـدَى والرَّشَـادُ ... وَنَفَـى الْجَـوْرَ عَـدْلُكَ الْمُعْتَـادُ

لـكَ فـي الحـقّ لا لغيـرك مِـن كُلْـ ... ـلِ الأَنَـامِ الإِصْـدَارُ والإِيْـرَادُ

أمـرُك النَّافِـذُ الـذِي مَـا تَبَـرَّا ... منـه أمـرٌ كُـلّ لـه منقـادُ

الإمـامُ ابْـنُ حَمْـزَةَ بْـن سُـلَيْمَا ... نَ مِـنَ النّـاس قَلّـتِ الأَنْـدَادُ

قَـامَ يُغْـري الإنـصاف بـالظلم حتـى ... مـا لظلـم مـذ قـام إلا نفـادُ

بـدّل الأمـنَ بـالخوف فـصارتْ ... جَنَّـة مـن فـرط الأمـانِ الـبلادُ

....

آمـرٌ بِـالْمَعْرُوفِ نَـاهٍ عَـنِ الْمُنْـ ... ـكَرِ نَفْـيُ التَّـشْبِيْهِ فِيْـهِ اعْتِقَـادُ

لَـسْتَ تَرْضَـى بِغَيْـرِ مَـا اللهُ يَـرْ ... ضَـاهُ مِـنَ الْخَلْـقِ أَيُّهـا النَّقَّـادُ

---

(١) انظر: مجموع رسائل الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة.. ص١٦٢–١٦٤.

(٢) هو محمد بن ذعفان الصنعاني، وهو من آل أبي عمرو الذين اشتهروا بالبلاغة والمكانة في الفضل بصنعاء، وكان مجيداً للشعر. انظر: مطلع البدور، ابن أبي الرجال، ٤/ ٢٩٨–٢٩٩؛ تاريخ اليمن الفكري، الشامي، ٤/ ١١٧.

(٣) السيرة المنصورية، ١/ ١١٣.

فهذه الأبيات من قصيدة يبلغ عدد أبياتها أربعين بيتًا استهلها الشاعر بالثناء على السمات النبيلة التي يتحلى بها ابن حمزة، وأعلنها صريحة أنها من شرائط الإمامة، ثم أخذ الشاعر يصف شجاعته وذوده عن الدين، فهذا النص يمثل بنية متكاملة في إبراز هذه السمات وتمجيدها، وينسجم مع السياق التاريخي؛ من خلال مواكبة الخطاب الشعري ما جعلها ابن حمزة أسسًا لدعوته.

ومن ذلك ما أنشأه حنظلة بن الحسن من قصيدة يبلغ عدد أبياتها أربعين بيتًا، خصّها كلها بفضائل ابن حمزة، مركزًا على السمات الدينية كالورع والصيام وقيام الليل، متسمة بالمبالغة إشباعًا لرغبته في تأكيد تحليه بهذه الخصال؛ يقول[1]:

لِـمَ لا يكـونُ النَّـصْرُ مِـنْ أَعْوَانِـهِ ... والـسَّعْدُ يخدمـه مـع الخـدّام

وَهُـوَ الإِمـامُ الـصَّائمُ القـوَّامُ لا ... مـا يـدّعون بِـصَائم قـوّام

العـالِمُ الفَـذُّ الْخَبِيْـرُ بِمَـا انْطَـوَى ... عَـنْ غَيْـرِهِ مِـنْ غَـامِضِ الأَحْكَـامِ

الزَّاهِـدُ الـورِعُ الّـذي لَـمْ يَكْتَـرِثْ ... فـي هـذه الـدُّنْيَا بجمـع حطـامِ

وبعد عرض هذه المآثر أخذ يصف الضالين؛ تأكيدًا على أحقيته بالاتباع والطاعة، ومحاربة الأعداء، والإطاحة بسلطانهم.

إن شاعرية ابن حمزة كانت باعثًا لحرص الشعراء على الإجادة في النظم، وتنميق الأسلوب، حين الثناء عليه بهذه الصفات النبيلة، يوضح ذلك القصيدة التي أنشأها مجيب عبدالأعلى الضميمي[2] بذمرمر، ويبلغ عدد أبياتها تسعة وثلاثين بيتًا، استهلها بمطلع تقليدي، ثم أخذ في الإطراء بخصاله النبيلة[3]:

مهـذّب الجـد فيّـاض أناملـه ... أَنْـدَى مِـنَ الأَنْـدَيَيْنِ البَحْـرِ وَالْمَطَـرِ

---

(١) المصدر السابق، ٢/٥٦٣-٥٦٥.

(٢) هو مجيب عبدالأعلى الضميمي المذحجي، قال عنه أبو فراس بن دعثم: إنه شيخ فاضل. انظر: السيرة المنصورية، ١/١٢٣.

(٣) السيرة المنصورية، ١/١٢٤-١٢٦.

حلْــو الخليقــةِ ميمــون شــمائِله ... أَبْهَـى مِـنَ الأبهيـيْن الوشْـي والزّهـر

الثّابِـتُ الـرأيِ مَـا تَنْفَـكّ عزمتـه ... أمضى من الأمضييْن السيف والقدر

عــز يــشرفه بالمــشرفي ويبــ ... ـنيه على الأشـرفيين العدل والنظر

لـه محاسـن مجـد جـاوزت وحلـت ... محاسـن الأحـسنييْن النثر والـشعر

فهنا يتضح التنميق في الأسلوب، والصنعة اللفظية وبخاصة في تقسيمات الشطر الثاني؛ ما جعل الشاعر يتعنت في إيراد بعض المعاني التي تتسم بالغلو والمبالغة، مثل: (أمضى من الأمضيين السيف والقدر)، وغيرها من المعاني، وهذا يؤكد التفاني في إرضاء شخصية ابن حمزة، والتقرب إليها.

ويتبين من النماذج التي نظمت في هذه المتتالية (السمات النبيلة) أن الشعراء التقطوا معانيها من الخصال التي صرح ابن حمزة أنها أسس للدعوة بالإمامة، وتجلت فيها المبالغة وبله الغلو في بعضها، تأكيدًا على الانتماء والانقياد لما دعا إليه.

٦. نشر الدين

إن هذه السمات اتكأت عليها دعوة ابن حمزة، لتكون سبيلاً ناجعًا في الإقناع، واستمالة العاطفة في تحقيق أهدافه؛ لذا عُني بترسيخها في القلوب، ويأتي في سياق ذلك تجسيد هدف (نشر الدين)، الذي رأى عزوف الناس عنه، وانتشار المعاصي والمنكرات، والواقع أنه رمى إلى بُعد سياسي يتمثل في تأكيد أحقية نسله في الإمامة من بعده؛ وهذا ما وشت به بعض النصوص التي قيلت في مناسبات مختلفة، من ذلك ما نظمه ابن حمزة حينما ولدت إحدى زوجاته ابنًا له، ولم يره مدة ثلاث سنوات وخمسة أشهر؛ لأنه كان في حربه ضد الأعداء، وحين لقيه في رجوعه إلى صعدة راكبًا، قال قصيدة يبلغ عدد أبياتها تسعة وعشرين بيتًا، أودع فيها الثناء على ابنه، وضمنها حثه على حمل الرسالة، ومواصلة المسيرة التي ابتدأها، وهذا بعد سياسي يؤكد الذي يطمح إليه بأن تكون ذريته هي التي تحكم زمام الأمور، يقول في بعض أبيات هذه القصيدة[1]:

(١) ديوان ابن حمزة، ص٤٢٧-٤٢٨؛ السيرة المنصورية، ٢/٧٢١-٧٢٣.

أَبَـا حَـسَنٍ والغَيـبُ رَجْـمُ ظُنُـونِ ... ولَكنَّنِـي أقـضي بـه لِيَقِيْنِـي

حكَاكَ لنا الحاكُونَ إذ قَـذَفَتْ بِنَا ... بِحَـارٌ رَكِبْنَاهـا بغيـرِ سَـفينِ

قلائـدُ فـي الأعْنـاقِ لَمْ نستَطع لَهَا ... فِكَاكًـا وشـأنٌ قَائِـدٌ لِـشؤُونِ

لـوازمِ شـرعٍ تَقْتَـضِيْنِي دُيُونَهَـا ... فَـأكْرِمْ بـدَيْنٍ فيـه جُمْلَـةُ دِينـي

....

وَتَحْمِـي ذِمَـارَ الْجَـارِ غَيْـرَ مُعـذِّرٍ ... وتخلِـطُ تَـشْدِيدًا هُنَـاكَ بلـينِ

وتُرمَى وترمي دون قومك إن غَـدَوا ... علـى دينكم والقـول رُبَّ شُـجُونِ

وتُهْمِـي نـوالاً للـوليِّ أخـي الـولا ... بِمُنْهَمِـرٍ دانـي الرَّبَـابِ هَتُـونِ

وأعْـطِ لوجـه الله وامنـعْ لوجهـهِ ... ولا تَـكُ فيمـا تُعْطِـه بِمَنُـونِ

....

وكُـن مثلَ أجـدادٍ نَمَتْـك عُـرُوقُهُم ... إلـى شـامخاتٍ فـي العُلـى وحُـصُون

إن هذا النص الذي أنشده ابن حمزة حينما رأى ابنه الذي لم يشهد ولادته، يؤكد قوة البأس في هذه الشخصية، وحرصها على تحقيق هدفه من الدعوة، وعدم لينها حتى في المناسبات التي ترق فيها العاطفة، يدل على ذلك المعاني التي اشتملت عليها الأبيات؛ فأين حنان الأبوة، وبخاصة في اللقاء الأول لابن لم يشهد ولادته؟! وانهلت التوصيات والتوجيهات، والتعليمات، وهل سيدركها طفل عمره ثلاث سنوات وخمسة أشهر؟ لكن إحاطة ركائز الطموحات في تحقيق الدعوة بذاته انعكس أثرها على مشاعره وأحاسيسه التي أضحت أسيرة لهذه الطموحات وحسب.

ويتسلل هذا النهج في قصيدة كتبها ابن حمزة إلى سليمان ابن أخيه إبراهيم الذي كان عضدًا له في المعارك ومات في إحدى الحروب؛ فاستهل أبياته بالثناء على شجاعة أخيه، ثم وجه توصياته وتوجيهاته لابن أخيه – الذي كان حينها في الكتّاب – بمقارعة

الأعادي، والنهل من العلم، ومشاورة أصحاب الحجا، ونشر الدين، ويبلغ عدد أبيات هذه القصيدة تسعة وعشرين بيتًا، منها[1]:

تُـــذَكِّرُنِي أبَـــاكَ خطـــوبُ دَهـــر ... وتُنَـــسِّي المـــرءَ صـــاحبَه الحبيبَـــا

....

وَشَـــمِّرْ للعلـــومِ وحُـــطْ حِمَاهَـــا ... لتُـــصْبِحَ فَـــوْق مِنْبَرِهَـــا خطيبَـــا

وَكُـــن للـــضيفِ بَحْـــرًا ذا أوَادٍ ... وللبـــاغِي النَّـــدى غيثًـــا سَـــكُوبَا

وحَـامِ على رُسُـومِ الـدِّينِ وانـصِبْ ... لِغَـــامِزِ عُـــوده ركنًـــا صَـــلِيبَا

وكُـــن عنـــد الخـــصامِ أخَـــا وقَـــارٍ ... لِتُـــصمِيَ فِـــي الْمُجَادَلَـــةِ القُلُوبَـــا

إن مثل هذه المناسبات ينتظر منها العاطفة الجياشة التي تعبر عن الفقد، وفي الوقت ذاته تحمل الاستبشار بهذا الفتى الصغير؛ لكن طغى عليها الثناء على الشجاعة، ومحاربة الأعادي، وحث هذا الفتى على اقتفاء أبيه في صورة تؤكد ما يختلج في نفس ابن حمزة من تجسيد الهدف الرئيس ألا وهو تحقق سيادة الدعوة له ولنسله بالإمامة على جميع أرجاء اليمن التي تعج بالصراعات السياسية المتنوعة، وتسود على أراضيها قوى ضارية لا يمكن أن تنال هذه الغاية مع وجودها إلا بالقوة وخوض الحروب الدامية.

وإذا كان ابن حمزة عُني بإشاعة هذه الركيزة في جميع المدن والقرى؛ فإنه نجح في كسب صوت مؤيديه؛ ما حداهم على دعوته إلى بلادهم لإقامة الدين ونشره، وبخاصة حينما تكون ترزح تحت طغيان الظلم وبعض المعاصي والمنكرات، من ذلك أبيات في صدر كتاب مع علي بن سليمان الحيدرة[2]، تضمنت دعوة ابن حمزة إلى فتح بلادهم،

---

(١) ديوان ابن حمزة، ص٤٢٨-٤٢٩؛ السيرة المنصورية، ٢/٧٢٣-٧٢٥.

(٢) هو علي بن سليمان الحيدرة، قاضٍ، وصاحب كتاب كشف المشكل في العربية، ويحكى أنه كان مطرفيًا، ثم رجع عن التطريف. انظر: مطلع البدور، ابن أبي الرجال، ٣/٢٥٣-٢٥٦.

ودحض الأعداء بها، وضمها إلى نفوذه، وإقامة الدين فيها، وذلك في قصيدة يبلغ عدد أبياتها أربعة عشر بيتًا، منها[1]:

هِيَ فُرْصَةٌ إِنْ ضُيِّعَتْ ضَاعَتْ وَإِنْ ... غنمَتْ أَفَادَتْ مَغْنَمًا وَفتوحا

....

وَاكْسِ البِلادَ بيمْنِ فألِكَ بَهْجة ... ليعود بارحها النحيس مسيحا

تستشعر التوحيد والتعديل والتص ... ديق والتهليل والتسبيحا

وتدين قسرًا لا يرى فيها سوى ... مالاً مؤدّى أو دمًا مسفوحا

يتجلى من عرض متتالية (نشر الدين) أن ابن حمزة اتخذها مثل السمات النبيلة دعامة لتأييد دعوته، وقد أودعها المؤيدون له أشعارهم، تسليمًا بما يرتئيه في بسط النفوذ، وتحقيق دعوته بالإمامة لنفسه، ويتضح أيضًا أن هذا الهدف صرف كثيرًا من المقومات الفنية والمضمونية في بعض النصوص التي قيلت في مناسبات يغلب أن تسودها العاطفة الجياشة الرقيقة إلى الإذعان لهذا الهمّ الذي يغشى أحاسيسه ومشاعره، كما أن مؤيديه انساقوا إلى ندائه إلى فتح بلدانهم بحثه على نشر الدين وإقامة الحقوق والواجبات.

٧. الرثاء

وفي تدرج نحو اكتمال دائرة السياق التاريخي بنتيجة مألوفة وواقع محتوم جراء الحروب والصراعات السياسية؛ فأي إنسان يخوض غمارها معرض لأن تدور عليه رحاها، وهذه النتيجة عبر عنها الخطاب الشعري في السياق التاريخي لبعض الأحداث التي وقعت في المدة الزمنية التي يُعنى بها هذا البحث، وقد أكدت النصوص التي نظمها بعض الشعراء في الرثاء الانسجام بينهما؛ إذ انصرف معظمهم إلى إقحام الثناء على الشجاعة، وتضاءلت عاطفة الفقد والحزن في بنية النص؛ بل جلّ ما نظم انصرف إلى العزاء الذي قيل في إبراهيم ابن حمزة الذي كان عضدًا لأخيه عبدالله، ومشاركًا له في

(١) السيرة المنصورية، ٩٢/١.

تأكيد أحقيته بالإمامة ومد نفوذه على جميع مدن اليمن وقراها، فمما قيل في ذلك قصيدة لظهير الدين مفضل بن منصور[1] يبلغ عدد أبياتها تسعة وعشرين بيتًا، استهلها بفاجع الدهر وخطوبه، ثم أخذ يسبغ معاني القوة والشجاعة على إبراهيم بن حمزة، من أبياته[2]:

ألا فجـع الـدهر الـذي هـو فـاجع ... بأرْزائـه وهـو المـسيء المـسارعُ

فَأدْهَشَ أهْلَ الْحِلْمِ منه وَرَاعَهُم ... بِمَا سَاءَهُمْ مِنْهُ الْخُطُوب الرّوائعُ

....

فَتًى مَاتَ وَالفُرْسَانُ عَنْه كَلِيْلَةٌ ... وَقَدْ حَادَ عَنْهُ المقدمون الأشاجعُ

كليث عرين مشبل ذي مهابة ... يذود الردى عنها وعنها يدافع

يصول بسيف عزمه مثل جده ... له أثر من فوقه السمّ ناقعُ

واتضح أثر السياق التاريخي في الخطاب الشعري في جميع النصوص التي نظمت في رثاء إبراهيم بن حمزة حيث اتسمت بتجسيد شجاعته وقوة بأسه[3]، وكذلك المراثي التي نظمت في غيره حتى وإن كانت المناسبة تلائمها العاطفة المتدفقة، والموقف يسوقها إلى التأثر بالفاجعة ووصفها؛ يبين ذلك ما قاله عبدالله بن حمزة حينما وصله نعي الأمير جمال الدين بن الأمير شمس الدين يحيى بن أحمد، ولم يمض من زواجه سوى عشرة أيام، فقال معزيًا والده وقد عظم عليه مصابه على كبر سنه[4]:

مـا خَيْـرُ عـيشٍ بِـهِ التَّكْـدِيْرُ مُعْـتَلِجُ ... وغَايَتَـا مُنْتَهَـاهُ المـوتُ والهـرَمُ

نُمْـسي ونُـصْبِحُ والآمـالُ طَامِحَـةٌ ... والمـوتُ مُعْتَـرِمٌ والعمـرُ مُنْهَـزِمُ

---

(١) هو ظهير الدين مفضل بن منصور بن أبي رزاح، تولى القضاء في بلاد مذحج. انظر: السيرة المنصورية، ١٠٢/١.

(٢) السيرة المنصورية، ٤٥٩/١-٤٦١.

(٣) للمزيد، انظر: السيرة المنصورية، ٤٥١/١، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٥، ٤٥٨، ٤٦١.

(٤) ديوان ابن حمزة، ص ٥٣٩-٥٤٠؛ السيرة المنصورية، ٣٧٥/١-٣٧٧.

.....	.....
شـيخان مـن آل طَـهَ كلمـا نَطَقَـا	تـساقطَ الـدرُّ والأمثـالُ والحكـمُ
بحـرَا نَـوَالٍ وَعِلْـمٍ كُلَّمَـا وَهَبَـا	مَوَاهِبًا خَجِلَتْ مـن وقعِهـا الـدِّيَمُ
لَيْثَـا نِـزَالٍ وسَـيْفَا كـلّ مَلْحَمَـةٍ	مرهوبـة وجبـاهُ الْخَيْـلِ تـصطدَمُ

وأخذ يسترسل في وصف الكرم والقوة والشجاعة وشرف النسب؛ ما يدل على استحواذ السياق التاريخي على الخطاب الشعري، ويتجسد ذلك أيضا في عزاء ابن حمزة السلطان علوان بن بشر بن حاتم وقد أصيب بموت امرأة له، استهلها بالحديث عن فناء الدنيا؛ لكنه لم يفلت من وصف شجاعة أخيه إبراهيم الذي مُني برحيله قبل ذلك، وذلك في قصيدة يبلغ عدد أبياتها تسعة وأربعين بيتًا، منها[1]:

نَبْكِـي عَلَـى غَـابِرِ الـدُّنْيَا وَسَـالِفِهَا	وَمَـا تَنَكَّـرَ مِـنْ رَسْـمٍ وَمِـنْ طَلَـلِ
وكـل مَـا قَـذَفَتْ فِينَـا بِأسـهُمِهَا	وَنَحْـنُ فـي دَعَـةٍ بِتْنَـا علـى وَجَـلِ
.....	.....
يَغْـشَى الأَسِـنَّةَ والأبطـالُ نَاكِـصةٌ	كَأَنَّـهُ شَـابِكُ الأَنْيَـابِ فـي عَلَـلِ
وردٌ هَرِيْـتٌ يُحَـامِي دُونَ أَشْـبُلِهِ	بِمُـذْرَيَاتٍ لأسـباب الـرّدى رُسُـلِ
لاقَـى الفـوارسَ يـوم الـسبت فـي	فظل فـي عَمَـلٍ والموت فـي عَمَـلِ
ما ماتَ حتّى حَمَى بالسيف مُهْجَتَهُ	عن أكثر الجيش والأيام تَشْهَدُ لِي
مُهَـذَّب لَـمْ يُـدَنِّسْ عَقْـدَ مِئْـزَرِهِ	سـحرُ الفـوَاتِنِ بالألْحَـاظِ والكُحُـل
حـامِي الْحَقِيقَـةِ يُسْتَـسْقَى بِـسُنَّتِهِ	بحـرٌ يفـيضُ علـى العـافينَ بالنَّفَـلِ

(١) ديوان ابن حمزة، ص٢٨٧-٢٩٠؛ السيرة المنصورية، ٢/٧٤٢-٧٤٧.

(٢) وادي لَصَف: من وديان منطقة الْحَنشَات في بلاد (نهم)، وفيها بيت الحواتم. انظر: معجم البلدان والقبائل اليمنية، إبراهيم المقحفي، ٢/١٣٧٤.

يُعْطي الحسامَ غَدَاةَ الرَّوْعِ بُغْيَتَهُ وعاملَ الرُّمْحِ من علٍّ ومن نَهَلِ

يتبين من عرض متتالية (الرثاء) تأثر النصوص التي نظمت فيها بالأحداث التاريخية، وبقوة البأس التي تغلغلت إلى أعماق الشعراء؛ ما جعلت معانيهم تنبض بها في سياق يناسبه المعنى الرقيق والعاطفة الحزينة وصورة الأسى ومرارة الفقد، وهكذا تحول موقف الرثاء الذي يستلزم أن يبث الشاعر ما يعتمل في نفسه من حزن الفراق، وشجون الأسى والتنائي إلى التغني بالشجاعة والعزم والحسم والنصر الذي تحسمه أسنة الرماح والسيوف في ساحة الوغى؛ فتحول الرثاء في جانب منه إلى تعديد مآثر البطولة والقوة في سياق تاريخي مزج بين الرثاء ورصد الحدث.

٨ ـ التهنئة

يتجلى أثر تسلسل الأحداث التاريخية في الخطاب الشعري بعد عرض المتتاليات السالفة، إذْ تَمّ إيضاح النهج الذي سارت عليه دعوة ابن حمزة لنفسه بالإمامة، ومن ثم جاءت المسوغات لهذه الدعوة التي تدعم أحقيته بها، وفي خاتمة هذا التسلسل عبر الشعراء عن تهنئتهم بالانتصارات في الصراعات والنزاعات السياسية والحروب الضارية، والسؤال الآتي: هل اختصت التهنئة بمضامين أو بملامح فنية معينة؟

ويمكن إيجاز الإجابة عن هذا السؤال ببيان أن (التهنئة) هي امتداد لتأثير السياق التاريخي، ولم يشط الخطاب الشعري فيها عن المعاني والمتتاليات السالفة؛ إذ تجلى تجسيد الولاء والنصرة، ووصف قوة البأس والنكاية بالأعداء، وربط ذلك بمبادئ الدعوة التي يرون أنها منهاج الحق، ونشر العدل والإنصاف، ودحض الظلم ومحاربة الفساد، والتعريج على اتصال النسب بآل البيت؛ فهذه الإجابة توضح تعانق السياق التاريخي مع الخطاب الشعري؛ فمما جاء على ألسن الشعراء في قتل قبائل بني صريم قصيدة ليحيى بن أحمد بن حجلان يبلغ عدد أبياتها اثنين وعشرين بيتًا استهلت بالتهنئة، وتضمنت وصف ما حل بهم من شدة البأس، منها[1]:

تَهَنّــا يــا أميــر المؤمنينــا حَيَــاة الــدّين والفــتح الْمُبِيْنَــا

(١) المصدر السابق، ١/٣٥٩-٣٦٠.

وَمَـــا مَـــنَّ الإلـــهُ بِـــهِ عَلَيْنَـــا ... وَيَهْنَانَـــا وَتَهْنَـــا الْمُـــسْلِمِيْنَا

تَحَكَّكَـــتِ العَقَـــارِبُ[1] بالأَفَـــاعِي ... فَأَعْقَبَهَـــا ضَـــلالاً مُـــسْتَبِيْنَا

أَطَـــاعُوا أَمْـــرَ قَائِـــدِهم فَـــضلّوا ... وَكَـــانَ ضَـــلالهُم عِلْمًـــا يَقِيْنَـــا

وقـــالوا: هـــم أولُـــو بـــأسٍ شَـــدِيد ... وهـــمْ فـــي كـــلّ ناحيـــةٍ عرونـــا

فلمّـــا أقطعـــت مـــنهم رؤوس ... بعثـــت علـــيهمُ حربًـــا زبونـــا[2]

ومن ذلك ما نظمه بعض الشعراء في الثناء على خصال ابن حمزة وكرمه وفضله، واتصال نسبه بآل البيت، وإقامته العدل والإنصاف؛ ولاءً ونصرةً له، وتأييدًا لدعوته، ثم التخلص إلى وصف شدة وطأته في الحرب على الأعداء، والدعاء له بالنصر، يقول يحيى بن مكني مهنئًا ابن حمزة بعد فتحه أُثَافَت قصيدة يبلغ عدد أبياتها خمسة وعشرين بيتًا، منها[3]:

أَسِـــيِّدَنَا وَمَوْلانَـــا الإِمَامَـــا ... إِلَيْـــكَ عَلَـــى النَّـــوى نهـــدي الـــسَّلامَا

....

وَدونـــك بعْـــد تهنئـــة بِمَـــا قَـــدْ ... بلغـــتَ بِـــه مـــن الأعـــدا انتقامـــا

أتانـــا الآن مـــا ازددنـــا ســـرورا ... بـــه وأشـــم حاســـدنا الرغامـــا

جَلَـــوْتَ بكـــلِّ مجلـــو صـــقيل ... عـــن الإســـلام فـــي العـــصر العتامـــا

ويلحظ في مثل هذه الأحداث أن الشعراء يتزاحمون في حلبة النظم فيها؛ لإظهار فرحهم، وتأكيد تأييدهم، وولائهم لابن حمزة؛ لمعرفتهم التامة بأثرها الطيب في ذاته،

---

(١) في المصدر (السيرة المنصورية): الأقارب، ولعله خطأ في الطباعة.

(٢) حرب زبون: يدفع بعضها بعضها كثرة. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة (زبن).

(٣) السيرة المنصورية، ٢/ ٦٤٩-٦٥١.

مع الإشارة إلى أنها لم تنأ عن تمجيد فعله بالأعداء، وذكر بعض قادتهم وما حلَّ بهم من البوار والهزيمة النكراء، وربط ذلك بقيام الدعوة بمبادئ الحق[1].

ومن التهاني التي أخذت نصيبًا وافرًا من النصوص، وتسابق الشعراء في إنشائها تلك التي قيلت حينما انتصر ابن حمزة على الأيوبيين في حصن ظَفَار، من ذلك قصيدة نظمها عمران بن الحسن بن ناصر العذري، يبلغ عدد أبياتها ثلاثة عشر بيتًا، منها[2]:

لـــيهْنَ أَمِيْـــر الْمُـــؤْمِنِيْن مَـــسَرَّةٌ ... أَتَـــتْ بَعْـــدَمَا كَـــادَتْ تَزِيـــغ قُلُـــوبُ

يَـــدُ اللهِ فـــي هَـــذِي الفُتُـــوحِ عَظِيْمَـــةٌ ... وَإِنْعَامُـــه فيهـــا عليـــه عَجِيْـــبُ

ألا أبلغـــا لـــي وردســـار وقـــل لـــه: ... متـــى كنـــت فـــي أي الأمـــور تُـــصيبُ

حـسبت حـروب الطـالبيين حمـزة ... فمـا أثمـرت يومـا عليـك حـروب

أَتَيْـــتُمْ بِإِقْـــدَامٍ وَعَـــزْمٍ وَكَثْـــرَةٍ ... وَجَـيْشٍ لَكُـم مِلءُ الفَـضَاءِ رَحَيْـبُ

وَلَـمْ تَـدْرِ أنَّ اللّه يـنقض عـزمكم ... وتعجيـل نـصر المـؤمنين قَرِيْـبُ

فـــوليتم تحـــت العجاجـــة شـــرّدا ... ســـراعاً وأن القلـــب منـــك لحيـــبُ

يتبين من العرض السابق للنماذج التي نظمت في التهنئة أنها سايرت سياق الأحداث، واستلت معانيها من تمجيد الشجاعة، ووصف الحرب، ونشر مبادئ الحق والركائز التي أعلنها ابن حمزة لدعوته، وهذا يعبر عن استحواذ السياق التاريخي على أفق الخطاب الشعري، وانسجامهما في كثير من النصوص.

ويتجلى من تأمل السياق التاريخي في القراءة التغريضية أن هذا السياق بسط نفوذه على نصوص الشعراء، وفرض شخصيته وهيمنته على إبداعهم الشعري؛ واتضح ذلك في هوية المتتاليات؛ إذ عبرت بشكل صريح عن النهج الذي ساد الصراعات والنزاعات السياسية التي تطلبت الولاء والنصرة، والقوة، وحرب الطغاة، وبينت في الوقت ذاته

---

(١) للاستزادة؛ انظر: السيرة المنصورية، ١١٨/١، ٦٣٠/١، ٦٠٢/٢، ٦٥١/٢، ٦٥١/٢-٦٥٣.

(٢) المصدر السابق، ٦٠٣/٢-٦٠٤.

مسوغات هذا النهج المتمثلة في شرف النسب، والسمات النبيلة، ونشر الدين، ما أحدث تناغمًا وقواسم مشتركة بينهما، ثم اكتمال الدائرة بنتائج هذا التعاضد وهو التهنئة بتحقيق الهدف والغاية، وكذلك الرثاء لمن مات بسبب المعارك والحروب، لكنه رثاء متأثر بأنفاس الأحداث؛ ما أبعد عنها عاطفة الحزن والأسى.

ثانيا- السياق التاريخي في القراءتين (الاستهلالية والتناصية)

يعنى هذا المبحث بإيضاح أثر السياق التاريخي في الخطاب الشعري من خلال تأمل القراءة الاستهلالية والقراءة التناصية؛ اللتين تؤكدان أن العلاقة بين السياق والخطاب ليست عشوائية، وإنما هي تكاملية تكشف عن بنية النص "التي تجسد رؤيته وتصدر عنها في الوقت نفسه"[1].

١- القراءة الاستهلالية

ويتجلى هذا الأثر في المستوى الكمي لمطالع القصائد التي يبلغ عددها مئة وخمسًا وخمسين قصيدة، منها مئة وثلاثون قصيدة خلت من أي مطلع تقليدي، وخمس وعشرون استهلت بمطالع تقليدية، يوضحها الرسم البياني الآتي:

شكل (٤)

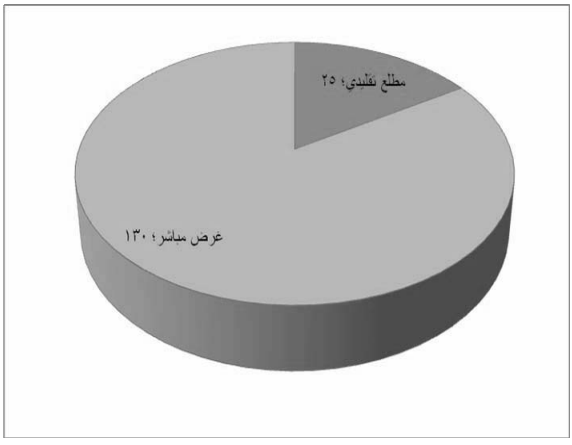

رسم بياني يوضح عدد المطالع التقليدية مقارنة بالمطالع المباشرة في الغرض

(١) شعرنا القديم والنقد الجديد، د. وهب أحمد رومية، عالم المعرفة، شوال ١٤١٦هـ / مارس ١٩٩٦م، ص١٧٥.

إن هذا الرسم يؤكد – من حيث الكم – أثر السياق التاريخي بما يشتمل عليه من صراعات واضطرابات سياسية في الخطاب الشعري؛ إذ عُني الشعراء بمسايرة هذا السياق من خلال خوض الموضوع مباشرة دون الالتفات إلى مسايرة بعض التقاليد الشعرية في مطلع القصيدة العربية؛ وهذا نابع من أن مناسبة جلّ النصوص تزامنت مع أحداث تاريخية مختلفة؛ لكن هذه الأحداث استحوذت على لبّ الشاعر، وهيمنت على خياله؛ فاستجابت أدواته الفنية طائعة لها، ولم تشط الموضوعات المباشرة التي استهل بها معظم القصائد عن المعاني التي تم ذكرها في القراءة التغريضية.

أما القصائد التي استهلت بمطالع تقليدية فيمكن إيضاح هذه المطالع من خلال الرسم التوضيحي الآتي:

شكل (٥)

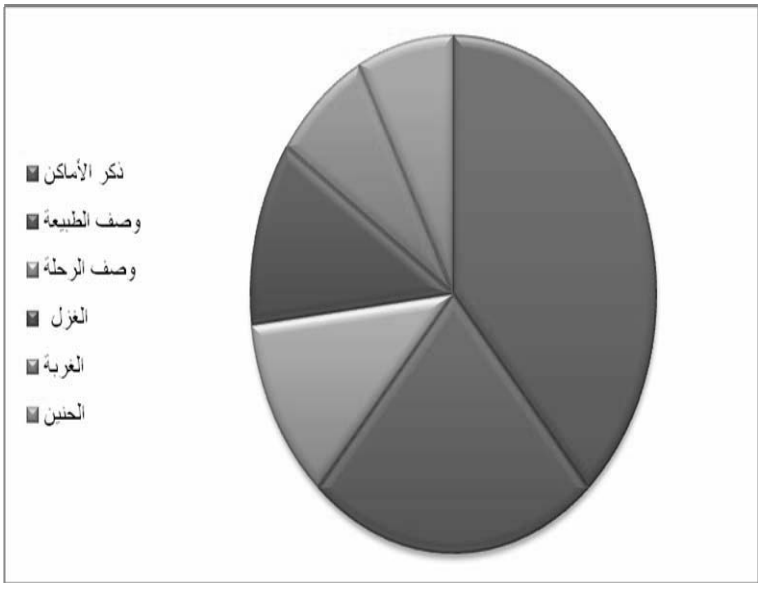

رسم توضيحي للمطالع التقليدية ونسبة كل مطلع

يتجلى من هذا الرسم أن ذكر الأماكن ووصف الطبيعة قد حظيا بالنصيب الأوفر من القصائد التي استهلت بمطالع تقليدية، بنسبة تقرب من ثلثي إجمالي عدد القصائد الذي يبلغ خمسًا وعشرين قصيدة، أما الثلث الباقي؛ فتقاسمته المطالع الأخرى بنسبة شبه

متساوية؛ ولعل شيوع هذين المطلعين يعود إلى مناسبة النصوص الشعرية، وملاءمتها للتزعزع الذي يعيشه الشاعر مثل غيره من الخائضين غمار الحروب المتوالية، ومعايشتهم التنقل المستمر بين الديار، ورؤية الطبيعة متنفسًا لمعاناتهم، والقاسم المشترك بين جميع المطالع أنها سيقت استهلالاً للمعاني المتوالية التي دارت في النصوص، وتمت الإشارة إليها في القراءة التغريضية؛ ما يؤكد أثر السياق التاريخي في الخطاب الشعري.

فمما نظمه الحسن بن عزوي مستهلاً قصيدته بذكر الديار، ثم خلص إلى الثناء على ابن حمزة، قوله[1]:

هَـذِي الْمَنَـازِلُ مِـنْ سَـلمى وذا البـان ... فَاسْـأَلْ مَعَـالِمَهُمْ عَنْهَـا مَتَـى بَـانُوا

وَقُـلْ لِغُـزْلانِ وَحْـشٍ فـي مَلاعِبِهَـا ... هَيْهَـاتَ لا تُـشْبِهُ الغـزْلانَ غـزْلانُ

لَـيْسَ الأَوَانِـسُ تلبـسن الْحَرِيْـرَ بِهَـا ... وَفَـــوْقَ لبّاتهـــا درٌّ وعقيـــانُ

....

ورُبّ ليـلٍ سَـرَى فِيْنَـا يُهيّجنَـا ... بَـرْقٌ خَفِـيٌّ لَـهُ سِـرّ وإعـلانُ

أَقُـولُ لِلْعِـيْسِ فـي أَثْنَـاء غَيْهَبَـة ... هَـدَاك مِـنْ نـورِ عَبِـدالله برهـانُ

هَـذَا الإمـامُ الّـذي لَمَّـا استبانَ لَنَـا ... قـرّت قلـوبٌ بمـرآه وأعْيَـانُ

وهذا النهج المتمثل في الاستهلال بالمطلع التقليدي ثم التخلص إلى الثناء على ابن حمزة برز في جميع النصوص، وثمة سؤال: لماذا تجلّت هذه الظاهرة؟ لعل الإجابة تتضح في معرفة الشاعر بشاعرية ابن حمزة، وتقديره الملكات الإبداعية؛ فيعمد إلى بدء قصيدته بأحد المطالع السالفة على الرغم من قلتها مقارنة بالقصائد الخالية من هذه المطالع؛ فيكسب استحسانه؛ ويجمع بين الهدف الرئيس من النص والإجادة في النظم؛

(١) السيرة المنصورية، ١/ ١١٥-١١٦.

ومن ذلك أيضًا قول سليمان بن محمد بن سليمان العنسي[1]، حينما تردد ابن حمزة في الإقدام على ديارهم؛ فكتب إليه يحثه على العزم، ويرحب به[2]:

حمامـــة وادي الأيـــك ســـلام	وإن لـم يكـن لـي فـي فنـاك كـلام
بكيـت هـديلاً مـا شـعرت بعهـده	فمـن يبـك معهـودًا عليـه مـلامُ
.....	.....
فلـو نطقـت مـن قبلهـا العـيس	فقـد ذل منهـا عـاذر وسـنام
حـرام عليهـا العـرس إلا بقولنـا:	إذا بلّغـت لابـن النبـي سـلام

فهذه القصائد التي استهلها بعض الشعراء بالمطالع التقليدية؛ لم تنأ عن نظيراتها اللواتي سُلك فيها هذا النهج، كما أنها لم تنظم في سياق حرب واقعة، وإنما في أوقات الهدوء والسلم؛ وجلّها سيق لتأكيد الولاء لابن حمزة، وتأييد دعوته[3].

٢. القراءة التناصية

أما القراءة الأخرى المتمثلة في القراءة التناصية؛ فتتبين من خلال توظيف التراث الشعري، والأحداث التاريخية، وكذلك تضمين بعض آي القرآن الكريم، والأمثال العربية؛ أي الاتكاء على فِكَرٍ سالفة أيًا كان منبعها، وتطويرها للتتسق مع النص المنجز[4].

إن تنوع منابع التناص يعبر عن ثقافة الشاعر، واطلاعه الواسع، ويمثل حسن التوظيف الركن الأساس في بيان مقدار إجادته، ويبين الرسم البياني الآتي هذه المنابع، ونسبها:

---

(١) هو سليمان بن محمد بن سليمان العنسي، أحد علماء عصره، وبليغ متكلم، وله شعر حسن، وكان مناصرًا لعبدالله بن حمزة. انظر: مطلع البدور، ابن أبي الرجال، ٢/٣٥٩–٣٦٠ .

(٢) السيرة المنصورية، ١/٥١–٥٢ .

(٣) للاستزادة، انظر: المصدر السابق، ١/٧٢؛ ١/١٢٠؛ ١/١٨٨؛ ١/٢٧٦؛ ٢/٤٩٠؛ ٢/٥١٠؛ ٢/٥٦٩؛ ٢/٦٢٥؛ ٢/٦٣٣ .

(٤) انظر: في ماهية النص الشعري (إطلالة أسلوبية من نافذة التراث النقدي)، محمد عبدالعظيم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص١٣٦ .

شكل (٦)

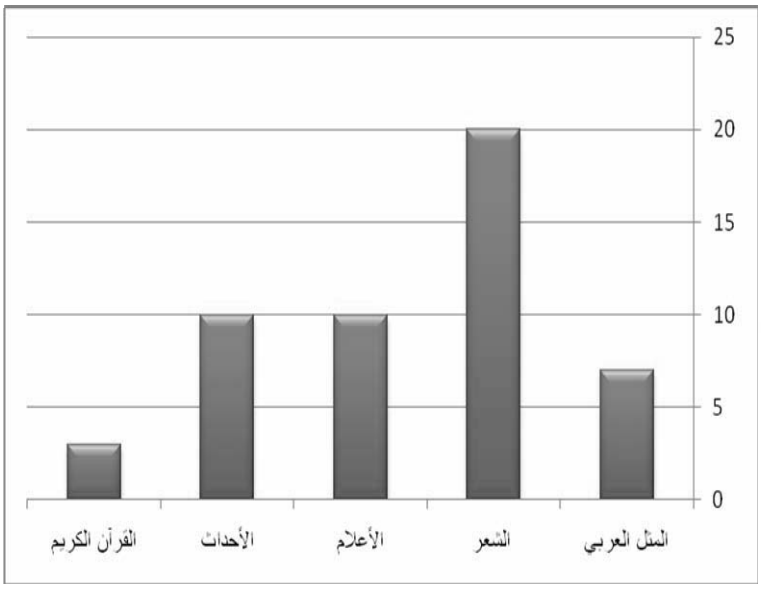

رسم بياني يوضح منابع التناص ونسبها

وحين تأمل هذا الرسم يتجلى أن التناص مع الشعر له النصيب الأوفر، وهذا يؤكد الثقافة الواسعة لدى الشعراء، وحسن التوظيف بما يوائم سياقات نصوصهم، ويكسبها انسجامًا لطيفًا في التعبير، وربطًا متناغمًا بينها، وتبدر الإشارة إلى أن معظم التناص الشعري صاحب الأشعار التي نظمت في الحروب، من ذلك قول ابن حمزة وهو في حرب في ظفار، مضمنًا أبياته الثناء على قوة جيشه وبسالة جنوده، والحث على الصبر في مواجهة العدو، معرجًا إلى ذكر القبائل العربية (قحطان، عدنان)؛ لإثارة العزيمة فيهم، ومشيرًا إلى الحروب السالفة، ذي قار، القادسية، إذ يقول[1]:

جيش تضل البلق في حجراته ... خالي المذاهب أرعن جرار

....

وادعوا بني قحطان أنصار الهدى ... ونزار يقبل يعرب ونزار

(١) السيرة المنصورية، ٢/ ٥٩٧-٦٠١ .

....

وملـــوك عـــدنان قفـــوا آثـــارهم فلهـــم بكـــل بـــسيطة آثـــار

ملكـــوا ســـــمرقندًا وإفريقيـــة وســـما لهـــن علـــى الخلـــيج غبـــار

فهذه الأبيات مستلة من قصيدة يبلغ عدد أبياتها أربعة وستين بيتًا، ويتضح التناص من خلال شطر البيت الأول (جيش تضل البلق في حجراته)؛ إذ أخذه من شعر زيد الخيل الذي يقول فيه[1]:

بجـيش تـضل البلـق فـي حجراتـه تـرى الأكـم فيـه سـجد للحـوافر

ومن ذلك التناص ما قاله علم الدين سليمان بن موسى الحمزي، حينما خرج ابن حمزة بعض الأيام يمشي؛ فسابق بين فرسيه؛ فسبق أحدهما؛ فأنشأ قصيدة من سبعة وعشرين بيتًا استهلها بقوله[2]:

وقـد أغتـدي قبـل ضـوء الـصباح علـى سـابق مثـل تـيس الظبـا

فهنا تناص مع بيت امرئ القيس[3]:

وقـد أغتـدي والطيـر فـي وكناتهـا بمنجـــرد قيـــد الأوابـــد هيكـــل

فهذا التناص يكشف مدى عناية الشاعر بربط وصفه بأصالة البيئة العربية، وتوظيف المعنى الذي ساقه امرؤ القيس؛ ليؤكد من خلاله أصالة ابن حمزة، وإدخال السرور في نفسه؛ لأنه ينعم بموهبة شعرية فذة، ويشنف أذنه سماع التراث الشعري الأصيل، ويزيده تفاعلاً واستحسانًا حينما يسبغه الشاعر عليه؛ وبهذا يكسب الشاعر رضا ابن حمزة بهذا الملمح الفني؛ ويحقق التفاعلية التي أقامت علاقة فنية مستوحية السياق الذي نظم فيه النص السابق، وتوظيفه في النص المنجز[4].

---

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، بيروت، ١٩٧٠م، ١٦/٥٢ .

(٢) السيرة المنصورية، ١/٣٢٨ .

(٣) ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨٤م، ص٢١ .

(٤) انظر: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ١٩٩٢م، ص١٢٠ .

ويأتي التناص المتمثل في توظيف الأحداث التاريخية والأعلام في مرحلة تالية للتناص الشعري، وحين تأمل هذه الأحداث يمكن حصر الغاية من التناص في وظيفتين رئيستين؛ الأولى: سياق ما يعزز قوة البأس التي انتهجها ابن حمزة، والثانية: التأكيد على تحقيق رسالة الدعوة، وبسط نفوذها على جميع أرجاء اليمن؛ فمن الأولى أبيات ضمنت قصيدة محمد بن عبدالأعلى الضميمي يحث فيها على طاعة ابن حمزة ويثني عليه، وعلى قوة بأسه ضد الأعداء، يقول[1]:

أوقعوا فيهم وقائع صدق ... كان فيها لهم شفاء الغليل

ذكرتنا يوم الكلاب وذي قا ... ر ويوم النسار في التقتيل

يتجلى من البيتين السابقين توظيف الحدث التاريخي في سياقٍ يؤكد قوة بأس ابن حمزة ضد الأعداء، والتنكيل بهم، وتجسيد ذلك بالمقارنة بأيام العرب[2] التي شهدت معارك طال أمدها، واتسمت بالعنف والإصرار على تحقيق الهدف، وراح ضحيتها أناس كثيرون، وهنا إشارة إلى أن المعاندين والمعارضين سيحل بهم مثل ما حلّ بما في هذه الأيام من مآسٍ.

أما الغاية الأخرى من التناص بذكر الأحداث التاريخية؛ فانصبت على تعزيز مبادئ ابن حمزة التي يأتي في مقدمتها إقامة الدين، وإزاحة الظلم ونشر العدل، من ذلك قوله في إحدى قصائده التي يستحث فيها الموالين، ويذكرهم بأهمية تحقيق هذه المبادئ حتى وإن ماتوا في سبيل ذلك، يقول[3]:

لنا في رسول الله أعظم أسوة ... لمن كان بالآيات والذكر داريا

---

(١) السيرة المنصورية، ١/٤٢٤ .

(٢) يوم الكلاب الأول: كان لسلمة بن الحارث آكل المرار على أخيه شرحبيل، ويوم الكلاب الثاني كان لتميم على مذحج، والكلاب: ماء بين الكوفة والبصرة. ويوم ذي قار: كان فيه النصر للعرب على جيوش فارس. ويوم النسار: كان لضبة وتميم على بني عامر. انظر: أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى وآخرون، بيروت، ١٩٤٢م، ص٦-٣٩، ٤٦-٥٠، ١٢٤-١٣١، ٣٧٨-٣٨١ .

(٣) السيرة المنصورية، ١/٤٠٠ .

فحمـزة قـد ذاق الحمـام وجعفـر وزيـد وهـم كـانوا حمـاة عواديـا

فهنا التناص بيّن استحضار الأسوة الحسنة، وذكر بعض أعلام الصحابة الذين استشهدوا في بعض المعارك الحربية ذودًا عن الدين، وإيمانًا برسالة الإسلام؛ وهذا فيه تأييد ودعم لمبادئه؛ وسبيل ناجع في الإقناع، واستمالة العواطف لموالاته، وهذا يؤكد إبداع الشاعر في حسن التوظيف بما يتلاءم وسياق النص، والرسالة بين المبدع والمتلقي.

ولم يشط توظيف الأعلام عن المبادئ والركائز التي جعلها ابن حمزة عمادًا لدعوته؛ إذ عُني هو نفسه وكذلك الشعراء بحشد الأعلام التي تؤكد اتصال نسبه بآل البيت؛ تأييدًا لدعوته لنفسه بالإمامة، ولم تنأ جميع التوظيفات عن هذه الغاية، من ذلك قصيدة لحسن بن عزوي العصيفري يبلغ عدد أبياتها خمسة وثلاثين بيتًا، قالها في رثاء إبراهيم بن حمزة، وضمنها دحض الشامتين، وتسلية أخيه عبدالله بن حمزة بشرف نسبهم إلى آل البيت، يقول[1]:

طريقـــة آبـــاء لـــه وعمومـــة مـضوا فـي سـبيل الله واسـتبدلوا

كحمزة والزاكي الحسين وجعفر ـهند وقتلـى الجوزجـان وبـاخمرا

قتيـل بأيـدي الظـالمين غـدت لـه حـزازات وجـد فـي القلـوب فمـا تبـرا

ويمارس توظيف الأمثال العربية النهج نفسه في الخطاب الشعري؛ ما يعطي منظومة متكاملة لأن يقوم التناص بدوره المؤثر في تجسيد الواقع، والسعي إلى استغلاله في تحقيق الغاية من إيراده؛ وذلك بتآزر المقومات الفنية مع البؤرة التي تسهم في تجليتها جماليات التوظيف[2]، ومن ذلك ما نظمه ابن حمزة ضمن رسالة بعثها إلى أحد الأعيان في سياقٍ يؤكد خلاله رؤيته نحو حمل الهم لإنقاذ البلاد من الطغاة، يقول[3]:

---

(١) المصدر السابق، ٤٤٤/١. وللاستزادة: انظر: المصدر نفسه، ٤٤٧/١؛ ٥٦٧/٢ .

(٢) انظر: اللغة والتفسير والتواصل، د. مصطفى ناصف، عالم المعرفة، الكويت، العدد (١٩٣)، رجب ١٤١٥هـ/ يناير ١٩٩٥م، ص٣٢٨.

(٣) السيرة المنصورية، ٦١/١ .

وإن قال قوم قد غفلت عن العدى فلست وإن طال السكون بمؤتلي

وقولي لهم لا عن جدال وجفوة رويدكم ويل الشجيّ من الخلي

فهنا تناص بتوظيف ابن حمزة المثل العربي (وَيْلٌ للشّجِيّ من الْخَلِيّ)[1]، الذي يؤكد من خلاله الفرق بين الإنسان صاحب الهم والإنسان الفارغ؛ في إيماءة إلى عنايته بتحقيق مبادئه ومنافحته عنها، وهذا يعبر عن القدرة الشاعرية والثقافة الواسعة التي يحظى بها، والموهبة في انتقاء السياق الملائم للتوظيف، ومن ذلك ما قاله شاعر مجهول يمدح ابن حمزة مشيرًا إلى اتصال نسبه بآل البيت، وما يتصف به من الكرم والعلم والحجا، إذ يقول[2]:

كريم السجايا التي هو أهلها وقلتم لقد أولى صنيعًا وأنعما

وتلك لعمري وهي شِنْشِنةٌ له وإن لم يلده أخزم وابن أخزما

فهنا يوظف الشاعر المثل العربي (شنشنة أعرفها من أخزم)[3]، وهذا مثل يقال إذا تم تشبيه الولد بأبيه في الصفات، وفي مشابهة الفرع للأصل، ويعبر من خلاله عن أن هذه الخصال التي يحظى بها ابن حمزة تدل على أصالته، وأنها امتداد لسلالة نسبه الذين عرفوا بها، لينسجم هذا الإطراء مع رضا المتلقي، ويبعث في نفسه السرور، وفي الوقت ذاته يؤكد ولاءه له، وتأييده دعوته[4].

ويأتي في خاتمة منابع التناص التي وردت في نصوص الشعراء التناص مع القرآن الكريم، والسؤال هنا: لماذا - من حيث الكم - كان هذا التناص أقل المنابع؟ لعل الإجابة تكمن في أن المنابع الأخرى التي تمت الإشارة إليها فيها فسحة للشاعر؛ لتجسيد معانيه وبخاصة التي تتسم بالمبالغة في الأصالة العربية، وما يتصل بالثناء على

(١) انظر: مجمع الأمثال، أبو الفضل الميداني، تحقيق: د. قصي الحسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ٣٨٢/٢ .

(٢) السيرة المنصورية، ٣٥٦/١ .

(٣) مجمع الأمثال، الميداني، ٣٩٢/١ .

(٤) للاستزادة من النماذج التي ورد فيها التناص مع الأمثال العربية، انظر: ٢٨٩/١، ٣٨٦/١، ٥٣٦/٢، ٥١٧/٢ .

النسب، وقوة البأس؛ أما القرآن الكريم فيلزم مراعاة نصوصه، وفي المحاولة في تحوير سياقات هذه النصوص محاذير شرعية، قد تتنافر مع ما أكده ابن حمزة في أن أولى ركائزه في دعوته نشر الدين وتعاليمه؛ لذا كان التناص مع آي القرآن الكريم يتسم بالحيطة من قبل الشاعر نفسه؛ ولعل هذا ما أدى إلى قلة توظيفها في النصوص الشعرية؛ فجاءت محصورة في مناسبات يسيرة، وفي الأغلب خالية من الغلو أو التجروء على تحوير النص القرآني.

ومن النماذج التي تجلى فيها التناص مع القرآن الكريم ما أورده أبو فراس ابن دعثم في قصيدة طويلة يبلغ عدد أبياتها ستة وستين بيتًا، ضمنها ذكر الأحداث التي مرّ بها ابن حمزة، والإشارة إلى المعاندين وأصحاب الضلال، إذ يقول[1]:

كفروا الصنايع ثم راموا نجدةً ... من وردسار فسار يزجي الجحفلا

لخراب ذيبين وقطع كرومها ... فغدا شبا تلك الجموع مفللا

لقيته فئة تعد قليلة ... غلبت بإذن الله جمعًا محفلا

فهنا تناص مع الآية الكريمة: "قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين..."[2]، وجاء هذا التوظيف ليبث روح الحماسة في الموالين لابن حمزة، وغرس الشجاعة في نفوسهم، وبخاصة أن الخصم يملك جيشًا قويًا؛ موظفًا السياق القرآني ومناسبته في نصر المسلمين ضد الأعداء، مطمئنًا بذلك قلوبهم بأن النصر حليفهم، وهذا النهج سُلك في تفنيد آراء المعارضين والأعداء، من ذلك ما قاله ابن حمزة ردًا على شعرٍ وصله من إحدى البلدان يتضمن معارضة أهلها دعوته، وتمسكهم بأرضهم، ومن أبيات هذا الشعر[3]:

بني حمزة عودوا إلى أرض جدكم ... وميلوا سراعًا ناهضين إلى الحقل

---

(١) السيرة المنصورية، ٢/ ٦٩٠ .

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٤٩) .

(٣) السيرة المنصورية، ٢/ ٥٢٥-٥٢٦ .

فقـد طـال مـا زاحمتمونـا بأرضـنا وفعلـتم مـا تنتهـون مـن الفعـل

دعـوا الحقـل إن الحقـل سـبق لجـدنا حـواه قـديمًا بـالرديني وبالنـصل

صـبرنا ومكنـاكم مـن بلادنـا علـى الـضيم والغـبن المـضاعف

فأجاب ابن حمزة عن هذه الأبيات بقصيدة يبلغ عدد أبياتها خمسة وعشرين بيتًا، مؤكدًا فيها دنس هذا الشاعر، ومذكرًا بنبل رسالته، ومقاصده الحسنة، وموظفًا التناص القرآني في هذه القصيدة بقوله[1]:

أَيَـا شـاعرًا رامَ المعـادَاةَ بيننـا بِقَافِيَـةٍ دلّـت علـى دنَـسِ الأصْـلِ

....

فـصرْتَ كَمِثـل الكلـب يَلَهـثُ دائمًا حَمَلْـتَ عَلَيْـهِ أو تَرَكـتَ مـن الْحَمْـلِ

وَمِثـل حِمَـارٍ بـاتَ يكْـدمُ رَحلَـه ولم يَدْرِ أنّ الصُّحْفَ في ذلك الرَّحْـلِ

فهذا النص المعارض للنص السابق يؤكد ملمحًا فنيًا، ومقدرة شاعرية للرد؛ ذودًا عن الأهداف التي أطلقها ابن حمزة لدعوته، وتجلى التوظيف بصورة قرآنية، وذلك في قوله تعالى: "فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا..."[2]، وفي قوله تعالى: "مثل الذين حمّلوا التوارة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا..."[3]؛ فهنا تكمن الشاعرية في التناص القرآني، في سياق توبيخي للمتلقي، وفي الوقت نفسه تأكيد لنبل الرسالة، وتوظيف الصورة القرآنية لاستمالة العاطفة الدينية لدى القارئ، وكسب تأييده لدعوته، وجعل القائل الأول في زمرة الكفار والمعاندين للدين، علمًا بأن سياق النص الموجه إلى ابن حمزة يصب في ناحية سياسية؛ إذ أكد الشاعر فيه أحقيتهم ببلادهم، وأن أجداده هم من تكبدوا عناء الاستقرار فيها بالسيف

(١) ديوان ابن حمزة، ص٢٧٤؛ السيرة المنصورية، ٥٢٦/٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: (١٧٦).

(٣) سورة الجمعة، الآية: (٥).

والمناظلة؛ لكن ابن حمزة حوّر الأمر إلى سياق ديني في ذكاء ودهاءً لصرف الأذهان إلى أهداف رسالته، وعدم مسايرة النص السابق في فحواه.

يتبين من العرض السابق للسياق التاريخي في القراءتين الاستهلالية والتناصية؛ أنهما أبرزتا هذا السياق من خلال ظفر القصائد الخالية من المطالع التقليدية بالكم الأكبر من القصائد التي استهلت ببعض هذه المطالع، وهذا يتلاءم وطبيعة المناسبات والأحداث التاريخية التي سيقت فيها النصوص، كما أن هذا الكم القليل الذي استهل بالمطالع التقليدية جاء استفتاحًا للثناء على بعض سمات ابن حمزة أو تأييد مبادئ دعوته لنفسه بالإمامة.

أما القراءة التناصية فقد كانت جسرًا لتجسيد كثير من المعاني والركائز لمكونات هذا السياق، وأبرزت البراعة الفنية لدى الشعراء في جماليات توظيفها، كما أن القراءة التغريضية لم تشط عن تحقيق هذه المكونات بما أُشير إليه في خاتمة دراستها، إذ انسجمت المتتاليات معه في تناغم يؤكد سيادة هذا السياق، وتأثر الشعراء بمتطلباته وأحداثه؛ ما أدى إلى بروزه على المستويين المضموني والفني في انسجام تام، وجعله لوحة شاعرية معبرة عن مدة زمنية اتسمت بالصراع السياسي والفكري في اليمن؛ ألقت بظلالها على الخطاب الشعري؛ فجاء ملبيًا للبيئة المحيطة به، ومتأثرًا بها.

كما يتجلى أن ما وجِد من السيرة المنصورية أمدنا بجملة من الشعراء التي تكاد جل المصادر الأدبية والتاريخية تكون خالية من سيرهم، وهذا مكسب في تأريخ الأدب العربي، وإعطاء صورة عن بعض فصوله في بيئات لم تمتد إليها يد هذه المصادر، وبخاصة مع وجود الكم الشعري الكبير، والبراعة الفنية في معظمه؛ ما يؤكد أهمية الوقوف على التراث الأدبي العربي، واستجلاء نصوصه، وإعطاءه حقه من الدراسة والتحليل والتمحيص، وتوظيف بعض أدوات البحث العلمي الحديثة المناسبة في تقويم جمالياته.

* * *

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- أبو فراس بن دعثم وكتابه السيرة المنصورية، د. عبدالغني محمود عبدالعاطي، مجلة كلية الآداب، جامعة صنعاء، العدد العاشر، سنة (١٩٨٩م).
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة عشرة، ١٩٩٩م.
- الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، بيروت، ١٩٧٠م.
- أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى وآخرون، بيروت، ١٩٤٢م.
- بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ترجمة: محمد الولي، محمد العمري، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.
- تاريخ اليمن الإسلامي منذ قيام الدولة الصليحية حتى نهاية الدولة الأيوبية (٤٢٩-٦٢٦هـ)، د.محمد عبده محمد السروري، مكتبة خالد بن الوليد وعالم الكتب اليمنية، صنعاء، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م.
- تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي، أحمد بن محمد الشامي، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ١٩٩٢م.
- الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية، حميد بن أحمد بن محمد المحلي، تحقيق: د. المرتضى بن زيد المحطوري الحسني، مكتبة مركز بدر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي (٥٦٩-٦٢٦هـ)، محمد بن علي مسفر عسيري، دار المدني، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- دينامية النص (تنظير وإنجاز)، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨٤م.
- الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبدالمنعم الحميري، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م.
- الزيدية (نظرية وتطبيق)، علي بن عبدالكريم الفضيل، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمّان، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- السيرة المنصورية، أبو فراس بن دعثم، تحقيق: د. عبدالغني محمود عبدالعاطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
- شعرنا القديم والنقد الجديد، د. وهب أحمد رومية، عالم المعرفة، شوال ١٤١٦هـ / مارس ١٩٩٦م.
- الصراع السياسي والفكري في اليمن خلال العصر الأيوبي (٥٩٣-٦١٤هـ / ١١٩٦-١٢١٧م)، د.محمد بن عبدالله الشويعر، د.ط، الرياض، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.
- صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة (تاريخ المستبصر)، ابن المجاور، مراجعة: ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٦م.
- طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، الملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول، تحقيق: ك.و. سترستين، دار صادر، بيروت، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، محمد بن أحمد الحسيني الفاسي تحقيق: فؤاد سيد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م.
- غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.
- في ماهية النص الشعري (إطلالة أسلوبية من نافذة التراث النقدي)، محمد عبدالعظيم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٦، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
- قيام الدولة الزيدية في اليمن، د. حسن خضيري أحمد، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.
- اللغة والتفسير والتواصل، د. مصطفى ناصف، عالم المعرفة، الكويت، العدد (١٩٣)، رجب ١٤١٥هـ / يناير ١٩٩٥م.
- اللغة والخطاب، عمر أوكان، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠١م.
- مجمع الأمثال، أبو الفضل الميداني، تحقيق: د. قصي الحسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.
- مجموع بلدان اليمن وقبائلها، محمد بن أحمد الحجري اليماني، تحقيق: إسماعيل بن علي الأكوع، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- مجموع رسائل الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة، تحقيق: عبدالسلام بن عباس الوجيه، مؤسسة زيد بن علي الثقافية، عمّان، ط١، ١٤٢٢/٢٠٠٢م.

- المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام، إدريس بلمليح، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
- مطالع الأنوار ومشارق الشموس والأقمار، ديوان عبدالله بن حمزة، تحقيق: إبراهيم يحيى الدرسي الحمزي، مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية، اليمن، صعدة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- مطلع البدور ومجمع البحور، أحمد بن صالح ابن أبي الرجال: تحقيق: عبدالرقيب مطهر محمد حجر، مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية، صعدة، اليمن، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- معجم البلدان والقبائل اليمنية، إبراهيم أحمد المقحفي، دار الكلمة، صنعاء، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- معجم البلدان، ياقوت بن عبدالله الحموي، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).
- معجم المدن والقبائل اليمنية، إبراهيم المقحفي، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٥م.
- هجر اليمن ومعاقله، إسماعيل بن علي الأكوع، دار الفكر المعاصر، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- الوضوح والغموض في الشعر العربي القديم، عبدالرحمن بن محمد القعود، مطابع الفرزدق، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

* * *